دار قصص
وحكايات
للنشر
الإلكتروني
2021

ابتسامة الطفل الغامضة

الساهي إبراهيم

قصص

ابتسامة الطفل الغامضة

قصص

الساهي ابراهيم

الفهرست

العنوان: ابتسامة الطفل الغامضة

النوع الأدبي: حكايات – قصص

المؤلف: الساهي ابراهيم

قوة السرد: كتابات إبداعية

المُدقق اللُغوي: الكاتب بنفسه

اللغة: فصحى

التنسيق الداخلي والإخراج الفني: رمضان سلمي برقي

تصميم الغُلاف: رمضان سلمي برقي

سنة النشر: 2021

تم النشر بواسطة دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني2021

الدار غير مسؤولة عن أفكار الكُتّاب الواردة بإبداعاتهم؛ الكُتّاب وحدهم المسؤولون عنها.

الموقع الصفحة الجروب

ابتسامة الطفل الغامضة؟

أحمد أبو عريكة! يا لهذا الاسم، فقد اهتزت أركان دواخلي الآن والأساسات م، مما أطبق بثقله على صدري واجتاحني ما يشبه الدوار لولا جلوسي المسبق لأسقطتني العاصفة المفاجأة باقتحام هذا الاسم وزلزلته السريعة للتماسك الهش لكياناتي، فتفجرت ذاكرتي في البدء بدقائق صغيرة مما حملت عنه ثم تداعت ما تخلف فيها من ذكريات حبيسة لتنطلق بعنف كوحوش من أسرها لترجف كل خلية مسالمة لتخرج ما فيها من تفاصيل تتلاحق في لهث لتتوسع وتتضخم وتحتل كل أعماقي بقسوة عملاق، أنتفض بجبروته معتصرا جوارحي وكالرعد زلزل سكوني المأمول في سلام ونعيم كنت اختلسه عقودا بالتهرب وبناء حواجز الدفع الوقائية لدرء أي انهيار لأسوار وسدود نسيان في تناس زائف لأكتشف حينها زيف قوتها أمام ثورة مضادة صادقة بعنف ذك الماضي، جارفا ما ترسب في الأعماق ونافثا بزخم ما طمر من مشاعر متطرفة ومحررا ما أحتبس فيها من لحظات متراكمة بخليط أحاسيس السعادة والآلام والهموم دأبت على تحاشي

خروج شيء منها أو ظهوره منذ مضت تلك الأحداث، وجميعها ظلت غير مناسبة أو مرغوب فيها كهذا الاسم!

الذي دفع بنفسه وأصعد كل ما حوله من الرواسب الآسنة

للأعلى، لتحيا من جديد وكانت دفنت منذ الصغر في ظلمات كهوف الذاكرة، وكأنها تضمر لي الحقد فخرجت كصهير تصاعد وتدفق من المكامن في غضب بركان، وسينتشر صديد معظم المخزون في عمقي وعبر مجاري دمي باحثا عن أوهن وأرق مسالك لينبجس في أحاسيسي وسيتأذى بها قلبي حين يحتقن وأحترق من جديد بنيران حمى ماض قديم متواري وكأنه نما وتضخم وأصبح أشد قوة مع مرور الزمن.

الآن سيبرز لي جبروته في ضعفي وشيخوختي وسهولة إرهاقي وتمزيقي، وسيطرة كل مكبوتات الأوجاع والأرق الممتزج بكوابيس الرؤى المؤلمة، وبما يفيض من عذاب الحنين المختزن وأماني العيش ولو لثواني في ذاك الماضي المحبوس في كل خلية من أعضاء جسمي عاصرت أحداثها بكل تلك اللحظات وما حوت من أعذب مشاعر السعادة وحتى ما يحولها الى حرقة مؤلمة فقد تركت في داخلي شوقا حبيبا رغم ما فيها من الشقاء، وأخيرا بعثت حية ترجف أعماقي وأكتشف أنها ظلت مختبئة عشرات السنين تتربص بي مع تقدمي بالسن لتجد الفرصة المناسبة للقفز كوحش جائع أو غاضب للانتقام ممن مارس في أسرها كل أساليب العزل والاضطهاد، ووجدت فرصتها للرد وبأشد انتقام، ومن يدري وأنا حتى الساعة كنت أظن بأني هزمت كل مخاوفي من خطورة معظم هذه

الذكريات الحبيسة بالمشاعر المفرطة التطرف بالحزن أو بالسعادة وكنت اعتقد بأني فعلا تمكنت من دحرها ودفنها وهذا بنشاط أيام الشباب والتطور الجسدي وقدرات الذهن وقوة الروح فاكتشفت أخيرا بأني أكبر حالم واني استند على جدران شامخة من الوهم!

فاسم أحمد أبو عريكة بجميع تفاصيل حياته وذكريات أيامه لم ولا تموت ما دمت حيا، وظلت حية كامنة في توابيتها في الأعماق تنتظر فرصتها لتقوى في ضعفي وتخرج كالغول لتغزوا عدوا قديما أو تحتال للتسلل عبر الحواجز المهترئة في ظلمة كهذا اليوم لتبتهج بتألمي وأعتقد بأنه قد أزف، لشعوري اللحظة بأن هذا الاسم بدأ حقا يناور أعماقي للاجتياح والابتهاج بالحسم وبفتح، حين ينكأ الجراح الساكنة وينقف ما تجمد فوقها من نزيف أسود بتوال السنين. وأنها الفرصة الحقيقية والمناسبة، لسهولة اختراقي وإحداث التأثير السريع بعد انكشافي وما بي من عطب فادح منتشر بجميع مكوناتي.

بعد تمكن الوهن مني بتكرر أزمات الإيذاء لعضلات قلبي واستنزافها الكامل لشباب قدراتي العضلية وتجريدي مما تبقى لدي من عزيمة الصمود والمقاومة. برغم إبحاري في نهايات الخمسين التي تعتبر أو يجب أن تكون من أجمل مراحل العمر حيث يجب أن أحظى بالسكينة بالتصالح التام للروح مع جميع خبايا النفس والجسد، وكنت حريصا على وصولي تلك المرحلة واستمتاعي بهذا العمر في سعادة وحتى نهاية عمر مديد ولكن توالي الأزمات أدى الى عكس كل الآمال والتوقعات، فكوفئت بعقود مع جميع أمراض ما بعد السبعين ومبكرا

للتدهور الصحي المتجاوز للحدود فصاحبه المبالغة التي أدت لتكثيف إجراءات الحذر من الماضي بالإقصاء الجائر والدائم لكل الذكريات وطرد كل حامل لما يتسبب لي بالكدر، وذكرياتي هي الأخطر لما فيها من ملوثات قديمة حملها كل الماضي، وشمل الحظر كل ما حوى من ثوان تعسة أو سعيدة بمنع مرارتها أو الاستمتاع بحلوها، فكانت تبعات قراري هذا الضرر الأكبر، لتسببها بسرعة الاستهلاك لطاقاتي وجفاف منابعها.

بفرضها الشيخوخة المبكرة ولتطلب مني في هذه الساعة البروز للمواجهة بلا تخاذل. لذا ظلت لدي نبوءة لا تفارقني بأن مصيري سيكون ذات يوم من أحد هذه الذكريات العزيزة الموجعة، وأن فيها أسرع نهاياتي، فبأي منها ما يكفي تماما لقتل قلبي المنهك والمثقل فورا والمضحك بأني حينها سأنظر إلى قاتلي هذا في سعادة وفي عينيّ كل الرضا قائلا:

شكرا! إنها حقا لحظة عظيمة وتستحق الموت المشرف وبجدارة. سأقول الآن لمثل هذا الهدف ألف نعم، فان في تذكري لزمن هذا الطفل المشرد البائس والذي أقتحم يوما حياتي بلا تردد أو استئذان وأصبح بعدها أعظم وأعز صديق وأول وآخر صديق أيضا في حياتي!

مع أن بزوغ صداقتنا ودوامها ونهايتها كان في أشهر قليلة حدثت خلال أشهر عطلة الصيف الموافقة لنهاية ذلك العام الدراسي المتوج بنجاحي الحاسم إلى الصف الخامس الابتدائي إلا أني أشعر بذكرياته الآن متوهجة بالسعادة الجارفة والشديدة الألم كأحد تلك السكاكين الحادة والبارعة في تمزيق قلبي شر

تمزيق، فلا أستبعد أبدا بأن تتسبب بذبحي ذات يوم لكونها من النوعية المميزة والقوية التي لم تمل ولن تكل أو تثلم أو تصدأ حتى بعد امتداد العمر بها وبي لأكثر من ست عقود ومر على مولد تلك الأحداث أكثر بكثير من نصف القرن.

أحمد ابن أبو عريكة أو "أحمد ابن الجبال" كما أصبحت يومها أحب أن أطلق عليه هذا الاسم، وهذا الولد يمكن أن يعتبر ممن يطلق عليهم في أعراف الحارات في بلدتنا في ذاك الزمن الاسم الدارج "عيال الشوارع" وكانت تكتظ بهم البلدة في تلك السنوات لأسباب متعددة ومنها الحالة المزرية لأوضاع الناس بعد انتشار الحروب العالمية ومآسيها وما تلاها من حروب التحرر في بلدان العرب فكان البحث عن لقمة العيش أحد الأسباب الرئيسة، إذ كان الجوع هو الهم الأكبر وفي جميع الناس، والسمة التي سادت في أهل الأرض على اثر الحروب الكثيرة والمتوالية واجتاحت سواد الأرض وسماءها وبحارها في طفرة من التناحر البشري، وكانت عامة وشاملة للأفراد والمجتمعات وتورطت فيه كل الدول والشعوب بحروب عالمية خلفت الموت والدمار وانتشار أخطر الأوبئة من الأمراض، وتفشي الفقر والجهل وترعرع وعم التخلف الإنساني الثقافي والحضاري من جديد، وحتى بعد عودة التعقل للبشر بالبدء في نبذ الحروب والسعي لتطوير الحياة كانت ما تزال اللقمة أولا هي أكبر الهموم التي تواجه الآباء والأسر في القرى وهم الأشد بؤسا والضمان لبقائهم، ولحماية وجودهم وحياة أولادهم أيضا، فقام البعض منهم بإرسال أطفالهم للمدن مهما

بعدت للخدمة لدى الأسر والعائلات، وهذا فيه الأمان المؤكد لحصول أطفالهم على الطعام المفقود في منازلهم وبنفس الوقت ضمان الطعام لبقية هذه الأسر بما يرسل اليهم من الأجرة والمبرات في المناسبات خلال العام.

بمرور الأيام وتحسن مستويات المعيشة قليلا في كل البلاد تطورت مطالب هذه الأسر قليلا بعد تحقق اللقمة والأجرة فظهر اشتراط البعض بالسماح لأطفالهم بالتعلم في مدارس الكتاب لحفظ القرآن ومعرفة بعض أمور الدين والكتابة أيضا ومع استهلال البدء بالتعليم الحكومي الذي سارعت الحكومة آنذاك بجهدها لتبديد الجهل كأول الهموم والواجبات، وبدأت بتأسيس عدد من المدارس النظامية في

المدن والبلدات الكبيرة، ولتعلن قيام نهضة جديدة بانتهاء نظام "مدارس الكتاب" القديم ودوره المحدود في نشر العلم إلى النظرة المستقبلية المطلوبة للنهضة الجديدة.

وأندفع بعض سكان القرى القريبة من المدن وبنفس تلك الدوافع التي تهدف للهرب من الجوع والفقر والجهل بإرسال صغار أولادهم للخدمة في بيوت الأسر الميسورة والمعروفة والموثوقة في المدن وتكسب منه أسر الأطفال مبالغ مناسبة وعطايا تعينهم على سد حاجاتهم، ويطلق على الطفل مسمى "مجاود" أو صبي، ثم تطورت المنفعة أن أصبح منهم من يشترط على العائلة التي ترغب بالحصول على خدمة طفل أن يتم تعليمه قراءة القرآن والكتابة في مدارس الكتاب ولاحقا بتحسن حال الدولة وتحسن الحياة في المجتمع وأنشاء عدد

من المدارس النظامية الصباحية والمسائية أصبح أخيرا هذا المطلب ربما السبب الأوحد من إرسالهم للخدمة والعمل في المدن، فالخدمة أو اكتساب مهنة في العمل، فأصبح العلم أو التعلم أهم شروط أهل الطفل للقبول بإرساله للخدمة في بيوت العائلات والتي تنتهي غالبا ببلوغ الطفل العاشرة ولا تزيد عن سن الثانية عشرة من العمر غالبا.

ثم بلغ التطور الجوانب الأخرى في أنماط حياة أهل المدن في التجارة والبناء واستحداث وتعدد الكثير من المهن اليدوية فأنشئ لها دكاكين وورش تصنيع صغيرة مكنت أهل هؤلاء الأطفال من استبقاء من كبر منهم واستبعد عن خدمة البيوت ليزاول العمل في المتاجر والورش ومع شيوخ ومحترفي المهن والصناعات وهم من يطلق عليهم المعلمين، فأصبحت المهن كثيرة والحاجة للعاملين أكثر ومع كثرة وتوسع المزارع والمتاجرة بمنتجاتها أوجدت الحاجة الى تعدد المتاجر لبيع وشراء نوعيات من البضائع بحيث تخصصت في كل نوع عائلة محددة احتكرتها وأصبحت معروفة بها شأنها شأن المهن والصناعات القديمة والمحتكرة أيضا كأعمال البناء والنجارة والحدادة والمخابز والدباغة ومنتجات الفخار والخزف، ففي الحبوب هناك عائلة الحمصاني والعدساني والخضري والسمان واللبان والخياط والصيرفي وهكذا فلكل حرفة ومنتج مشاهير كالفوالين والقهوجية والدباغين والصوافين والخيمية وغيرهم من أصحاب الورش الصغيرة والصناعات اليدوية، وحين تكاثرت أعدادهم تطلب وجود شيخ لكل نوع من هذه البضائع والحرف، ولدى هؤلاء يجد الأطفال

حاجتهم في المأوى والطعام وتتحقق أحلامهم ومستقبلهم بتعلم المهنة لكسب العيش ومنهم من دفعه الطموح ليواصل التعلم بالدراسة المسائية وحقق الكثير، في حين كان جميع من يستخدمهم يلتزم بالأمانة ويحرص على إرسال مستحقاتهم من الأجرة والمساعدات لأهلهم كل شهر بالوسائل المعتادة المتاحة.

كأي زمن يوجد صراع حقيقي قائم وحتمي بين أي إنسان مع ظروف الحياة فيحتمل الفشل أو النجاح، ومن الطبيعي أن تفشل أعداد قليلة من الكم الكبير المتدفق من الأطفال المرسلين للخدمة، ويحدث لبعضهم فشل ذريع في المهمة التي قدم من أجلها ولأسباب كثيرة ومختلفة وبخاصة التي تنتهي بالطرد لسوء السلوك أو لكثرة التمرد في منزل المخدوم أو مع المعلمين، وقد يلجأ بعضهم للهرب قبل تسليمه لأهله خوفا منهم أو خجلا، ومنهم أعتاد الحياة المدنية وعيش الحضر وكره العودة لحياة القرى والأرياف، وبين هؤلاء الأولاد أيضا من هجر قريته هربا في ظروف خاصة كمعاناة من سوء معاملة ولى أمره أو من أهل القرية فيقرر الابتعاد عنهم بالهرب، وبعض هؤلاء يفقد أو يفضل أو يرفض التواصل مع أهله لسنوات الفشل الطويلة فيغرق في النسيان، وهناك من يعاني عيوب خلقية أو ذهنية وهناك من يتعرض لاحقا لتشوهات جسمية ولإعاقة ما، وهؤلاء تقل فرصهم للحصول على العائل أو المشغل لعدم مناسبته للعمل ومنها يتعذر حصولهم على المأوى والدخل الثابت فتمسي شوارع البلدة ولياليها الباردة البيت الوحيد والمأوى الدائم لهم فنشأت ظاهرة عيال الشوارع.

وليس بالغريب أن يلتقي هؤلاء في أسر صغيرة موحدة من المشردين آختهم ظروفهم ومصائبهم، فيشاهدون دوما في مجموعات أقلها طفلين وهم يخترقون الشوارع والأسواق ويجوبون الأزقة ويجتمعون في "القهاوي" أو المقاهي ويتواجدون حول المحلات وعربات بيع المأكولات ويطوفون حول بيوت الأغنياء، وكثيرا ما يتسولون في كل وقت وكل مكان ثم لا يجدون سوى مهنة السرقة وممارسة مغامرات النهب واغتصاب الأشياء.

وبهذا بدأت حكايتي مع هذا الطفل أبو عريكة، الذي قدِم إلى حارتنا ذات يوم متسكعا من حارة أخرى ثم لم يعد بعدها لحارته القديمة إطلاقا، لأنه أصبح واحدا من المنتمين لحارتنا.

كان في سن لا يمكن تحديدها، فيظن الرائي بانه في سن الثامنة وفي الحقيقة ربما قد تجاوزها بكثير وهذا لضآلة حجم جسمه ونحوله الشديد، ولكنه يجبرك على تغيير كل تخمين عندما تتحدث معه فتجده يحمل عقلية ومفاهيم وروح رجل تجاوز الثلاثين سنة بقوة شخصيته وباتساع مداركه ومعرفته في جوانب متعددة عن خبرة واسعة في الحياة مستندة على ثقافة صقلت بالممارسة وتميزت برجاحة عقل وتفكير ابن الخمسين في تخاطبه وعمق أساليبه واختيار ألفاظه والدهاء في تصرفاته.

ظهر لي أن لون بشرته الطبيعي والحقيقي قمحيا في سمرة وتتفاجأ ببياض شديد لا يمكن إثباته إلا عندما يكشف عن أجزاء داخلية من بعض بطنه وظهره أما جميع ما يظهر من جسمه كالوجه والرقبة وأطرافه وكل ما يتعرض منه للشمس

وللعوامل الجوية فيتراوح بين مزيج من الألوان لأنحاء من الوجه وأسفل الرقبة والأذرع فالبشرة كالحة وتنتشر عليها بقع سوداء وندوب متنوعة لا يعرف سببها، أما الأطراف فتغطيها تشققات جافة ومساحات متفرقة من الحراشف وجروح صدفية ورطبة بالإضافة الى ما اكتسبته من طول تعرضها للحر ولسفع الشمس وبرودة الهواء وصقيع الشتاء ومنها ما أحتمى تحت تراكم طبقات من الأوساخ. أما بنيته الجسمية فكما ذكر عن شدة نحوله بحيث تتوقع بأنه يتجه للتحلل أو على وشك التلاشي لكونه ضئيل الحجم ودقيق العظم وما يشاهد يرجح اختفاء كلي للحم تبقت عنه طبقة جلد رقيقة كبشرة أو كجلد افتراضي يكسو الضلوع والفقرات البارزة وحول الرقبة وبقية العظام، حتى أن عظام وجنتيه وجبينه هي أبرز ما يمكن رؤيته من رأسه وفي وجهه المغطى بغشاء كطبقة جلدية لا تعززها أنسجة لحم تستر ما تحتها من بروز العظام جعل مقلتيه تغوران بعينيه الشديدة الضيق والتي تزداد مع عادته تضييق أجفانه أثناء الكلام وعند الانفعالات حتى تصعب رؤية أحداقهما، ويتعذر تمييز لونهما الذي اكتشفته لاحقا وكان بنيا فاتحا وبشدة قالت عنه والدتي أشعل اللون. أما بالنسبة لعمره الزمني فقال لي ذات مرة انه لا يعرف حقا كم يبلغ من العمر وانه عندما أراد يوما البحث والمحاولة لمعرفة اليوم الذي جاءت به أمّه إلى الدنيا وأسعدت به الشياطين حسب قوله سأل أمه ذات يوم عن هذا بشوق واهتمام وأجابته بفرح يمتزج بالحزن وهي تقسم بالله بأنه هو نفس ذلك اليوم الذي ماتت فيه بقرة جدّته " سَعْدة".

أما بداية حكاية أحمد أبو عريكة مع ما سبق وما سيأتي أننا رأيناه لأول مرة حجل فيها في شارع الحارة الكبير ومرق وأستقر في زقاقنا، كان الوقت عصرا، أخترق الحارة والزقاق خلسة كشبح دون أن يلاحظه أحد، وجلس ملتصقا بظهره على جدار حوش العم محمد الفران بينما نحن نلعب بكرة الخيش المحشوة بما توفر من قصائص القماش والقطن والخرق البالية وتكورت جيدا بحياكة ماهرة لتأخذ شكلها الذي سهل اللعب بها، لأن أول وآخر كورة حقيقية رأيناها وجربنا متعة اللعب بها كانت قبل يومين، وقد أذهلتنا بسرعة تدحرجها وسهولة قذفها وبروعة قفزها وباستمرارها الغريب بمرونتها البارعة وتفوقها في الطيران، لذا حلقت للمرة العاشرة وسقطت في بيت "العزوبي" الوحيد في الحارة، وهو رجل وحيد غريب الأطوار يدعى العم سالم باحكرة، وكنا نحب إزعاجه وأغاظته لنجبره على الخروج ومطاردتنا ولنطلق نحوه أثناء المطاردة هتافات الأنشودة التي نظمناها ومرددين فيها الاسم الذي أخترناه له، ونظل نغني بقوة لأثارته ودفعه للمزيد من الركض والمطاردة، وآخرها ما حدث بعد سقوط تلك الكرة في بيته لأكثر من مرة ولم يعد يصدق ما كنا نتعهد به في كل مرة بعدم التكرار، فكورتنا الجديدة مجنونة بالطيران ومهووسة بالقفز في البيوت، فخرج علينا في هذه المرة وهو يحيط الكورة بذراعه ويضمها لصدره بقوة وقد أوصلناه لأقصى درجات الخبل، وأنطلق صوته الأجش نحونا يقذفنا بوابل اللعنات والشرر يتطاير من أحداقه غضبا، وكما توقعنا بدأت المطاردة المثيرة للامساك بأي احد وما يواجه الا مهارتنا بالركض والمراوغة حتى توقف المسكين في النهاية يلهث

مرهقا وفي ملاحقة جديدة لأنفاسه، فأخذ يجذبها بصعوبة من شدة التعب، ويغمره يأس مؤلم من فشل محاولاته للتمكن من لمس أي منا بتوالي هزائمه أمام براعتنا، وبعد أن أسترد أنفاسه اذا به ينظر الينا مبتسما وهو يقف كالليث للفكرة الشيطانية التي سينتقم بها منا لنفسة ويفرغ من جوفه كل شحنات الضغط والغضب التي تملأ صدره، فأخرج سكينه الخاصة أبو غزال والمشهور بها من جرابها في حزام الكمر الذي يشد خصره ورفعها عاليا وأخذ يلوح بها في الهواء كالخنجر وليراها الجميع، ثم وبهدوء بدأ بمرحلة الانتقام يحفزه الحقد المتأجج في صدره وغمد نصل السكين ليخترق جلد الكورة بطعنة شرسة وأتبعها طعنات متشفية لمرات، وكان خلالها يقلب نظرات زائغة نحو كل واحد تراه عيناه، مع ابتسامة غبية يصطنعها كابتهاج عظيم بالنصر، وتزامن مع لحظة إفراغ ضغط أعماقه المترسة صوت مؤلم لنا بلفظ الكورة لأنفاسها المضغوطة جوفها وأصبنا بالجمود حتى آخر نسمة، وليوغل في إيلامنا وليؤكد لنا شفاء نفسه تماما راح يكمل استمتاعه بتمزيقها إربا بجنون وحولها إلى أشلاء متناثرة في وسط الزقاق، فلم نجد سوى الرد بترديد أنشودتنا المبتهجة ولكن أصواتنا المتفجرة بالغيظ تأبى أن تخرج من حناجرنا إلا متشبعة بالألم والحسرة على كورتنا العجيبة، فتطايرت صرخات هستيرية وزعيق في كل الاتجاهات بأنشودتنا الشامتة والتي لجأنا لابتكار مفرداتها لاستفزازه اليومي منذ سكن زقاق حارتنا كعزوبي أو أعزب، ولم نشعر فيها بالسعادة في ذلك اليوم ولا بمتعة الضحك عند رؤيته يخرج الينا غاضبا في شكله الغريب وبانفعالاته المضطربة

لإخافتنا، فالحق إن ما حدث لنا هذه المرة كان ضربة عكسية موجعة بشدة مهما تظاهرنا، وحين انطلقت بها حناجرنا فلتخفيف ما توالد في جوفنا من القهر والحزن الذي سببه لنا العم سالم باحكرة، فهو بالفعل أذلنا وآلمنا بالانكسار وبالهزيمة لأول مرة في هذه المعركة، بل روعنا فيها بفقد العزيزة علينا والجميلة النادرة التي أحببناها من أول نظرة وفتنتنا بأول ركلة لحظة جاء بها والدي من بلدة جدة كهدية لنجاحي هذا العام، وكأني أشعر في تلك اللحظات بحزن الزقاق وأنه يردد صراخنا تأثرا بهزيمتنا المريرة، وان جاهدنا بمحاولة إظهار العكس وبالانتصار إلا أن أعماقنا تصرخ رافضة في توجع قسوة هذا الانتقام الناجح لهذا الباحكرة:

يا باحكرة يا بو جنية

سكينتك خشبة ميه الميه

تحزم بطنك وتقول شبريه

ماهي سكينة هات أماريّه

ولابس عُمة وبدون كوفيه

مسوي مشكل يا أبو جنية

*****

أما مجيء هذا الولد الى الزقاق والتعرف عليه فحدث في عصر يوم آخر عقب هذه الهزيمة، وكان يلبس ثوبا فقد تماما لونه الطبيعي الحقيقي في لون غير محدد من البقع المتصلة المائلة للسواد مع القصر الواضح في الطول إلى

منتصف الساقين تقريبا وتقلص الأكمام أيضا مع اختفاء الأزرار ليظهر معظم صدره وكأنه يؤكد بأنه ظل يلبس هذا منذ كان في السادسة من العمر أو منذ تحصل عليه بتسلسل التوارث الذي كان معتادا ويجري بتوارث الملابس بين الإخوة مع نموهم وتوقفت عنده سلسلة التوارث، فالأقمشة والثياب بضاعة نادرة وغالية الثمن عدا قلة الخياطين في هذا الزمن، فأغلب أنواع الملابس في الأسر الفقيرة يتوالى الأخوة على لبسها مع التقدم في أعمارهم وتغيرات النمو في أطوالهم، والسبب كما ذكر صعوبة الحصول على البديل أو القدرة على توفير الجديد لأكثر هذه الأسر، فالمتوفر هو ما وجد مناسبا للأخ الأصغر حين يصبح قصيرا على أخيه الذي كبر فيتركه لمن يليه، وقد يحتفظ بها كثروة لسنوات طالما يتوفر وريث محظوظ من الإخوة أو من الأقرباء أو تعطى لمقرب كهدية ثمينة عند تعذر وجود المستفيد في الأسرة ونادرا عند انعدام الاستفادة من عملية التقصير أو استحالة إجراء عمليات التطويل بفك الثنايا السفلية والأكمام من الثوب وعدم جدوى الترقيع والرتق وهي عمليات دارجة لإخفاء الشقوق والاهتراء في مواقع من الثوب، وهذه لدى البعض الأسوأ حال فيبقى وضع الشقوق على ما هو عليه ولفترة أطول ومهما تعرض الثوب لكوارث تمزق واهتراء دون وجود للبديل بسبب الإمكانيات ولفقد الخبرة باستخدام أدوات الخياطة ولعدم توفر قطعة قماش في المكان التالف ولا يشترط أن تكون مشابهة فبما يتوفر وبأي لون لأن الغاية هي الأهم، وهذه الأمور برمتها في الحقيقة

مجهولة لدي الأسر الموسرة ولا تقوم بها المتوسطة الحال لتوفر البدائل والإمكانيات على الدوام وسهولة الشراء في كل المناسبات والأعياد.

أما بالنسبة لعيال الشوارع فهم الحالة الأكثر قسوة وأغلبهم من الصغار في السن والأسوأ أيضا من أولاد الأسر الفقيرة، وهذا لعدم امتلاكهم للبديل وانعدام المال أو لفقدهم من يتدبر أمورهم بالخياطة والترقيع وتنظيف ما يلبسون، فتحمل ثيابهم مع القذارة عروضا منوعة من الشقوق والتمزقات وبأحجام مختلفة وتلك من السمات الخاصة التي ينفردون بها عن غيرهم من أولاد عائلات الحارة الميسورة والفقيرة أو ومن يطلق عليهم إجمالا مسمى عيال الحارة. أما مسألة عدم لبس الأحذية فهي ميزة شبه عامة في البلدة والحارة ولا تتوقف على الفقراء بل تشمل حتى متوسطي الحال والمقتدرين، فالأقدام الحافية شائعة بين أفراد ذلك الزمن وتندرج أكثر على الفقراء والكادحين والكبار منهم والصغار، وان توفرت الأحذية كصناعة يدوية ويمكن توفيرها ماديا من المقتدرين إلا أن الغالبية يرفضون لبس الأحذية كامتداد لعادة قديمة، كما أنهم يجدون أن لبسهم للأحذية غير مريح وسيئ والأهم أنها تعيق قدراتهم على الحركة والعمل، فتصنف لديهم كرفاهية ونعومة مفرطة، لذا ليس مستغربا رؤية الحفاة في الأزقة والأسواق وتشاهد بين المارة رجالا من المجتمع ومن المعلمين والشخوص يسيرون بكل وقار وبتميز قوة الشخصية مع النظافة الملفتة للثياب وبأزياء رائعة ولكنه حافي القدمين وترى آخر يشمخ بعباءة وتتوج رأسه عمامة زاهية أو غترة عربية وعقالها

ويرتدي أحزمة وأسلحة منقوشة بمعادن ثمينة ويحيط بهم الخيلاء وهم يسيرون حفاة الأقدام.

هذا يذكرني بذلك اليوم الذي رأيت فيه أبو عريكة في بدايات تعارفنا وكان على غير المعتاد ينتعل حذاء حسنا، ولاحقا عرفت سر ذلك البذخ وبانه يحدث فقط عندما يكون مبيته في ليلة ماضية في أحد مسجديه المفضلين وهما مسجد العباس أو في مسجد الهادي، وكلاهما يقعان في وسط حارة البلد القديمة!

وتعتبر رؤية عيال الشوارع طويلا وفي مكان واحد غير متوقعة، فهم يظهرون كمجموعة بغتة في شارع أو مكان ما ومثيرين فيه صخبا وبعض المشاكل ثم يختفون وفجأة كما ظهروا، والذي يظهر لنا منهم في حارتنا هذا المساء فحالة شاذة، فهو وحيد ولم يختف ويختبئ ولا يتحاشى تسلط نظرات الفضول، كما أنه لم يتخوف من عيون حماة الحارة ومراقبتهم ومطاردتهم كالعادة، كما لم يشعر بالملل السريع من طول جلوسه ومشاهدته لألعاب أولاد الحارة بالكرة والتي يعتبرونها لعبة شاذة وغبية، ثم أنه لم يشعر بتردد وحرج أو خوف من تواجده منفردا دون عصابه من الرفقاء وجلس في تجمع كبير من حضور عيال الحارة، بل وأتكأ في أقرب مكان منهم بلا مبالاة وفي سعادة تامة، وهذا ما لفت انتباهي في تواجده أولا ثم ما رأيت فيه مما أبعدني تماما عن التركيز في اللعب، فما إن لمحته عيناي أول مرة أخذت أكرر محاولاتي بالنظر اليه ومن الاقتراب أكثر من مكانه أثناء اللعب، والسبب الذي أشغلني وجعلني أخرج ذهنيا من ميدان اللعب ثم بكلي حين لم أجد أي تفسير سوى تأجج رغبة

مسيطرة للتأكد من حقيقة ما كنت أراه وبالأخص في ابتسامته الغريبة والمتصلة وسبب توجيهها المستمر نحوي وبلا توقف!

فكلما زاد اقترابي منه زاد شكي واستغرابي وبما تحمل ابتسامته من غموض، فأنا أراه من البعد وعلى شفتيه ومحياه ابتسامة مستمرة وموجهة نحوي، وزادت ظنوني بها وبما تطوي وتحجب وراءها، وفسرتها بالسخرية مني أو بغاية تهدف لغرض غير حسن، وكلما وليت وجهي أجدني مشدودا لإعادة النظر اليها، فتلك الصورة تأبى مفارقة مخيلتي فأعود لأقترب منه مسافة أكبر لزيادة التحقق، فقد رسخت القلق في ذهني وإثارة في نفسي جعلتني أصاب بهوس رغبة ملحة بأن أعيد وأكرر النظر والتحقق لمرات ومرات، حتى أخذت انتهز الفرص التي تتطلب ملاحقتي للكورة بالقرب منه أو للحظات التوقف العارضة عن اللعب ليتجه بصري نحوه فورا دون إرادتي، وأخذت أمارس ارتكاب الكثير من الأخطاء في اللعب كي يغتاظوا مني فأطرد، ولكن الركض واللعب لم ولن يتوقف أبدا كمعركة محتدمة ولابد في مثلها من أن تسقط كل المثل وتداس الأعراف وتخترق القواعد والقوانين والأخلاقيات، فادعيت إصابة شديدة بقدمي وتوجهت بها الى ناحية الحائط الذي يجلس اليه الولد الغامض الابتسامة، وفي خطوات متثاقلة وبمسحة غضب مصطنعة تعتلي ملامحي كنت أصوب نظراتي نحوه علها تكبح أو تبدد تلك الابتسامة فتفاجأت بأني لم أر على وجهه أي خوف أو تأثير بل لم يتغير أي شيء في تفاصيل الابتسامة ومازالت منتشرة ودون توقف!

امتلأت غيضا من إغراق ذلك الصعلوك لي بتلك الابتسامات المنهمرة في حين لم أعرف لها سببا ولإطلاقها المستمر نحوي، فقررت أن أتريث لأجد ما يشجعني للاندفاع نحوه وانتزاع ابتسامته عن وجهه مع جذورها ومعها كل مغزى من ورائها وللأبد، فانتحيت جالسا على مقربة منه بمسافة غير بعيدة، وأخذت أركز ذهني وبصري في وجهه وقسماته وأتفحص وأخمن نواياه ولعل أثناء تأملي الجاد أقتنص ما قد يصدر عنه مع تدفق الابتسام من حركة تستفزني أو أجد منها أو من نظراته تلميحا يظهر ويؤيد فكرة تحثني على الأقدام بما أنوي وأتربص على القيام به، ولكن لا أجد سوى جمودا وصمتا حول تلك الابتسامة وكل ما يحيط بها فتتجدد بي حيرتي، وعللت السبب في صعوبة سبر أحداق عينيه ومحيطهما هو شدة ضيقهما وتواجدهما في عمق الظلال وعتمة البروز الناشئ عن الجبين وعظام الوجنتين مما جعل المقلتين تغوران في تجويفهما العميق، ولكني كنت أجزم بأنه يوجه نحوي ابتسامة غامضة، ولأنها تبدو في ملامح وجه شبه متحجر بقسمات خرساء لا تدلي بأي شيء، وكأنهم متضامنون بالتزام صمت مدبر على عدم الإفصاح أو إظهار الحقيقة بأي تعبير مع تجميد كل ما يدل على أي نوع من التواصل فأدى ذلك الى هيمنة حالة الجمود والخرس والتعطيل العام لعمل معظم عضلات الوجه.

خلال هذا الوقت وما تلاه من أزمنة لاحقة لم أجد أي جواب ولا تفسير بدليل مقنع عن سبب هذه الابتسامة المتصلبة، لأن صاحب الشأن أيضا ظل يصمت أو يتهرب عن الإجابة حول تفاصيل حدوثها إلا ما تبين لي بالتخمين وبالتفحص

عن قرب، وبدقة المراقبة المستمرة تأكد لي بأنه غير قادر بالفعل على تحريك عضلات وجهه والسيطرة على تلك الابتسامة المتحجرة لسبب مشابه لحالة الشلل أو التيبس، ولهذا هو لا يتحكم بوجود ابتسامته الظاهرة مباشرة، ومع كثرة اتصالي به وبمزيد من التمعن وجدت بأنها مطابقة تماما لأي ابتسامة حقيقية، وتظهره أمام الغير في حالة مزاجية من البهجة والسعادة الدائمة، ولا يمكن مشاهدة حدوث أي تبدل لغير هذه المشاعر حتى في لحظات الحزن والغضب ومع مرور فترة من العشرة.

فحدثت مني أول خطوة مطاردة للكشف عن سر هذه الابتسامة الغامضة وصاحبها، وبدأت بخروجي بالاحتيال من الملعب فلم أستطع حينها من تغيير اتجاهي الذي يأخذ بالجنوح نحو المكان الذي يجلس فيه هذا الولد، وتبين لي أولا أننا في عمر متقارب زمنيا وحتى جسمانيا، فأنا مع بداية هذا الصيف وتحديدا في الثاني من شهر المحرم الفائت أكون أبحرت في سن الحادية عشرة، كما اني أعيش منذ أسابيع في أسعد الأيام حيث تغمرني بحار من البهجة، ففرحتي بالنجاح مازال وهجها يحيط بي ويملأ أعماقي بالفخر ويحلق بي التباهي يعيدا عن الأرض وهذا لكوني من القلة التي نجحت هذا العام من المرحلة الدراسية التي عرفت بأصعب المراحل الدراسية أو المرحلة المستحيلة، وهي تجاوزي الصف الرابع دون دور ثاني وبالترتيب الممتاز، والأهم كان صغر سني المشهود نظرا لضآلة تكويني بنحولي الشديد المصاحب لقصر القامة فهذا

ما يظهرني للناظر في عمر مقارب لسن التاسعة، ولا أنكر بأنه خطر لي حينها بأن هذا الولد صورة ظاهرية ونسخة عني بطريقة ما.

حقا كنت في غاية الابتهاج مع مشاعر الطفو والتحليق في فضاء من الهيام بنشوة النجاح والتجاوز الفريد الى الصف الخامس، وهذا إنجاز جدير بالمفخرة، لأنه لم يأت بالسهولة المتوقعة وقياسا على كيفية الدراسة والمناهج في الزمن الحاضر، وما يؤكده أن هذا الحدث الذي لم يسبق حصول مثله قبلي ومعي قلة من طلاب هذه المدرسة منذ تأسسها وبدء التعليم فيها وما تلاه من سنين حتى هذا العام، فالقليل والنادر من يتمكن من الوصول الى مرحلة الصف الرابع والاستحالة أن يحقق أي أحد من القلة التجاوز للمراحل الأعلى والتي تظل فصولها فارغة في كل علم جديد، ومن وصلوا لهذه المرحلة أو التي قبلها قد دخلوا في أعمار كبيرة وأقاموا في كل مرحلة سنوات عديدة من التعثر المتكرر، ومن أسبابه الحقيقية أنهم يعلمون بأن إقامتهم في المدرسة لن تطول حتى وان تحول الزغب القاتم تحت أنوفهم الى شوارب سوداء كثيفة وتناسب مع أصواتهم الرجولية الخشنة التي تهدر في حجرات الدراسة والدهاليز بالشغب والتفاخر، فوجودهم كجميع من يدخل للدراسة هو لهدف محدد من أجل تعلمهم لقراءة القرآن ومعرفة مهارة في الكتابة ومقدرة في كتابة الأعداد والحساب ثم الانتظار للحظة التخرج التي يقررها الأب في أي لحظة بالخروج نهائيا، فالآباء يتركون أبناءهم في المدارس حتى بلوغهم للسن التي يرونها مناسبة للعمل معهم في تجارتهم أو مهنتهم أو للعمل مع أحد المعلمين ليكتسب مهنة

وحرفة يكسب بها المعيشة، فبدايات التعليم النظامي بدأت بفكر "الكتاتيب" ولا يرى الآباء في المدارس أي مستقبل سوى ما سبق، فلا يهم أن ينتهي العام بالشهادة المعتادة النتيجة والمزينة بكمية من الدوائر الحمراء، فحكمة الحياة الدارجة تأمرهم بأن:صنعة في اليد أمان من الفقر! وليس سوى ذلك.

وهذه المدرسة وهي الأولي في الحارة وأفتحت مع أخرى في البلدة، ولكن منذ تأسيسها لم يحن الوقت أو لم يتسن فيها فتح أي صف للمرحلة السادسة وان كانت تجهز في بداية كل عام حجرة الصف الخامس الحلم وتظل مهجورة حتى نهاية العام، لأنه يسبق ذلك وأثناء الدراسة التسرب المتتالي لطلاب مراحل الصف الثالث والرابع وهم الأقل من أصابع الكفين لليأس من النجاح أو تلبية لنداء العمل ويظل الأمل بافتتاح الصف الخامس قائما!

وما أخرجني من نرجسيتي اللصيقة هذه إلا ما جعلني أكمل خطواتي واندفاعي لمعالجة استفزاز صاحب الابتسامة الموجهة والطويلة البقاء ومعرفة سبب استهدافي، فتنقلت بمجلسي الى أكثر من مكان للاقتراب من صاحبها المزعج حتى تمكنت من رؤية وجهه أخيرا وبوضوح، ولا ادري حقيقة ما السبب الذي دفعني لهذا الفعل والمعتاد أن نتجنب أي احتكاك بمثل هؤلاء الأولاد مهما كانت الأسباب ونلقى فيه معارضة شديدة ومراقبة حريصة من أهلنا مع التحذيرات المستمرة بعدم الاقتراب منهم أو مصاحبتهم كي لا نتأثر بهم وتنحرف أخلاقنا الى مساراتهم ونكتسب سلوكهم السيئ، ولم يستثنى منهم إلا من عرف بين أهل الحارة معرفة تامة بحسن السلوك وأقرّ الكبار تواجدهم في

الحارة تحت ضمانة أحدهم وبالتزامه بأخلاقيات الحارة لينسب بعدها الى الحارة كفرد منها وتحت لواء عيال الحارة، وما حدث قبل توصلي للتعرف به وإقامة علاقة صداقة مع هذا الولد أني في ذلك المساء انتهيت للجلوس في المكان الأقرب وبدأت أحاصره بنظراتي وأراقبه بزوايا عينيّ وأنا أدعي انشغالي بعلاج إصابة قدمي، وأدهشتني جرأته حين أخذ بدوره يركز النظر بي ربما توجس مني بشيء ما فلم يحول بصره عني أبدا ومصحوبا بابتسامته المحيرة، فلما توصلت الى لا شيء وشعرت بالملل من هذه المناورات ومن كل الوضع قررت المواجهة للانتهاء من كل الأمر والتخلص من إرهاق نفسي من فضولي المفرط فأدرت رأسي نحوه وبادرته بسؤالي مبتسما لطمأنته وربما بتهكم لاستدراجه للكلام دون خوف وتردد:

- تعرف تلعب كورة؟ لو تعرف أنا أقدر أدخِّلك

تلعب بَدالي ..

كنت أشير بيدي وأنظر الى الملعب، وأذعرني ما فاجأني به وأنا أوجه بصري للملعب وانهي آخر كلمة من سؤالي إذ أحسست بشيء ما حولي أو بمن يقف فوق رأسي، وأدرت رأسي بخوف فاذا به يقف منتصبا مادا يده للسلام ولمصافحتي وعلى محياه نفس الابتسامة ما تزال مستمرة لم تتغير، وشعرت بانها حقيقية، وزاد من دهشتي أنه ودون أن يترك كفي جلس فورا وأمامي مباشرة ولا تزال نفس الابتسامة مشرقة أيضا وقال لي ببساطة وكأنه على معرفة تامة بي ومنذ سنوات:

- والله بصراحة يا أخويا أحب أشوف وأتفرج وبس،
ولا أحب ألعبها، لأنها يا أبو الصحب مشاكل
وصياح، وخذ يا ضرب! ويعني!
افهمها! أخوك كل يوم يأكل أنواع الضرب من البشر
ويشبعوني ألين ينتفخ جسمي ..

أضحكني ما قاله لي بتلك الروح والبساطة وأنا أتعجب من عدم ظهور أي ملامح حرج أو خوف وتردد بالتحدث معي وبتلك الصراحة وتطرقه في الموضوع مع استمراره بالحديث المتهكم وبأسلوب تمثيلي عجيب يحيطه بالسخرية حتى بالضحك على نفسه وعلى ما يقوله عنها بكل عفوية:

- ويا ليت بكون في هذا الضرب شيء ينفخ البطن
ويشبع كان نقول خير وبركة أقلها نضمن منه غدوة
وألا عشوة، لكنه ضرب الله لا يوريك!
من اللي يوجع البطن والظهر، ومن الجامد على
الرأس، ومن كذا أنا ما أحب الكورة ولا ناقصني
وجع الراس.

شدتني ألفاظه بنوعية الكلمات وهي تتلون ممزوجة بأسلوب براق مع حركات تمثيلية مبهرة يشكلها بيديه وبقية جسمه لتصوير ما يريد قوله والتعبير عنه، كممثل بارع بأدائه ليمتع المشاهد، فيقوم بتمثيل كل موقف باختياره للعبارات

والألفاظ ومتحكما بنوعيتها وبطبقات الصوت مع أداء حركي مثير وغير متوقع، وبينما هو يسترسل في حديثه يخرج سلسا وبسيطا دون تكلف وبلا مبالاة بنوع وموضوع السخرية أو صاحبها، وتجد فيها ما يشعر ويقنع بالصدق وبالجدية في آن مع كل اختيار في مواضيع الحكايات وفي التعبير عنها بالتصوير الساخر مما يجبرني على الانسياق في كثرة الضحك ولا أتمكن من التوقف طالما هو يسترسل في حماس يحمل الدهشة والبراءة بما يقول، وأكاد أفطس أحيانا في حالة هستيرية من الضحك تجعلني استلقي على ظهري وأتمرغ على الجوانب، وغالبا ومع كل هذا لا تسمع له ضحكات ولا يظهر عليه أي تأثر بما يتحدث عته وكأنه يتجنب أي رغبة بالضحك تاركا هذا لي فقط وللابتسامة الغامضة والعالقة على الدوام بوضوح على شفتيه وقسمات وجهه حتى في أثناء الكلام وفي الصمت.

أحببت أن أطيل الحديث معه لفضول عنيف ولما وجدت لديه من الكثير مما أجهله، وليس هناك ما يقاوم رغبتي الشديدة للتعرف أكثر على هذا الأعجوبة، والطريف شكلا بهيئته وبكل ما يظهر عليه ومنه أو يصدر عنه، كاللطف المتدفق من روح ممتلئة بالبراءة والطفولة تخرجه عن كينونته كولد مشرد تغطي ملابسه وبدنه الأوساخ وتلصق به الناس أسوأ الأوصاف والتهم!

ووجدت فيما يقول وما يسخر منه فداحة جهلي وعدم فهمي لكثير من الأمور إلا في سطحية دون تفاعل للعقل وتفكير ولا بتفهم وقناعة وان معرفتي في مجملها محدودة، وللمرة الأولى التي أخرج فيها عن قواعد هذه المعارف والتي

أعطتني تفاصيل واسعة عن أشياء وأوضاع خطيرة حول حياة مثله من المشردين وما فيها من مساوئ ينفر عنها أمثالي وغيري دون استثناء من أهل الحارة وعيال الحارة وأنقدت للبحث بنفسي عن معارف جديدة بدأت بإعطاء نفسي الحرية للتعرف على أسباب تعلق أحاسيسي بهذا المشرد من عيال الشوارع وشعوري بقربه الشديد من قلبي رغم المحاذير المسبقة، فوجدت فيه رقة المشاعر والذكاء ومعرفة واسعة في جوانب الحياة شجعتني في الحرص على كسب صداقته، وكي ألبي تلك الرغبة ولأزيد في نوعية ومساحة هذا التقرب رحت أسأله مبتسما في تودد:

- قول لي يا خي! ايش اسمك؟

نظر الي للحظة ثم رفع رأسه وتوجه بنظره نحو وجهة كأنه يعرفها في أعلى الأفق شمالا وتقلصت عينه اليسرى وغاصت تحت جفنيه وبالكاد يمكن رؤية حدقتها من خلال الفرجة الضيقة التي يتركها بين شفير جفنيه وهذا أسلوبه المعتاد الخاص في أكثر الحالات ومنها عند البحث الدقيق عن الحلول الذكية وفي التعمق عند مواجهة المواقف، وظننته لحظتها يرصد نجما بعيدا في كفاحه استعدادا للإشراق مع إقبال الظلمة في اللحظات الأخيرة لمغيب الشمس، وسكن متأملا وكأنه على علم مسبق بمكان وجوده في مثل هذا التوقيت ثم بعد فترة من الصمت وكأنها حداد لما تخفي مخيلته عني ولكنه ألتفت نحوي مع ابتسامته العالقة وأجاب على ما كنت سألت وبصوت هادئ ومتأني، ولا شك

أنه نجح في محاولته إخفاء القطرات العالقة بالكلمات والحروف التي ينتزعها من أعماقه الدامية:

- ايوه! انت كنت تسألني عن أسمي يا صاحب؟

ايوه .. بأقول لك ..

سرعان ما بدد كل ما ظننته حزن ودموية في حركة مفاجئة مقوسا فيها ظهره قليلا للخلف وضرب بكفه على صدره مرات وبابتسامته كالعادة بافتخار قائلا:

- اسم أخوك "احمد أبو عريكة"!

مع أن ابتسامته الغامضة العالقة تتسيد معظم اللحظات والمواقف إلا أن نبرات صوته لها مواقفها الخاصة، ففيها تتكشف روحه الحقيقة وجوانب شخصيته بتدفق وتسارع لكنها تحت تحكم بارع ومتفوق وهو يقوم بمزج خليطها العجيب والمركبات التي تشرب منها من حزن عميق وسخط وقلق في تعبير واعي وظريف مغلف بأغشية من التهكم والسخرية اللاذعة وكأنه يظهرها بحركات من خلف الرداء السحري أو في لوحات ببراويز مبهرة تضج بالظرف وبالمرح:

- أنا ؟ وأعوذ بالله مني أنا! أنا كنت حتى ضحى

اليوم من عيال حارة السليمانية لكن!

وبصراحة، أنا زهقت منها ومنهم ..

يا خي! ما لقيت فيها ناس على المجاز ..

والمقصود (المزاج)، وأكمل في روح أخرى تمتلئ سعادة وتفاؤل:

- لكن! حارتكم يا خي حلوة، بس! أسمع! بصراحة
تخوف! تخوف من العال "الحَوَش" اللي في
أطرافها في الشرق، لكن هنا وكل غرب الحارة
أكثر أهلها والله كلهم زيك، زي العسل!
وانت .. ايش اسمك يا .. عسل؟

قال عبارته الأخيرة السابقة ضاحكا وبحسب الموقف مد سبابته نحوي ومررها على ذراعي بسرعة – كلحسة–وتظاهر بأنه يلعق ما علق بها من العسل! ضحكت لهذه البداهة الطريفة ولكني شعرت بعدها بكراهية التعريف بنفسي بالتعالي المعتاد المتفجر بالغرور الذي أصبت به منذ أسابيع، فتحاشيت الظهور عليه بمثل هذه المشاعر فتسبب له الألم ولذا حرصت أن اتسم بالتواضع في هذه المرة لأنه سيمنحني حسا بالسعادة ويحقق رغبتي بتوثيق صداقتي به ويبرز حسن تربيتي وأخلاقي فأجبت وصوتي مغلف باللطافة وبالود:

- أنا اسمي "حسين"!
وبيتنا ذاك الأبيض اللي قدامك!

عرفته عن نفسي وتركت له المجال ليسترسل في وصف مشاعره وهو يبدى سعادته بهذه المعرفة وبفضيلتي أن سمحت له بتبادل الحديث معي والغير متوقع حدوثه مع أي أحد من عيال الحارة، ثم راح يسمعني بعض الحكايات التي

مرت به مع بعض المعلمين وأصحاب المحلات وغيرهم في ماضي أيامه وما جرى له فيها من المواقف وظل يدهشني ويفجر إعجابي بشجاعته وقدراته في مواجهة صعاب حياته وكشفه لأسرار ومشاكل غريبة لم أعلم بوجودها إطلاقا، وبالأخص ما يخلق فيها من إثارة خلال حديثه والنهايات التي يخلص بها نفسه بما يجعلني أتجمد بالبلاهة أو عاجز عن كبح الضحك الذي تفجره براعته في السرد والحبك والتصوير.

وأخذ يزداد إعجابي به وبعبقرية أساليبه في التخلص من أسوأ المواقف وبتحويلها الى مجرد مواقف ساخرة وبما يصاحب تلك الحكايات من عبارات ووصف وتعبير حركي مذهل يبرع فيه أداء جسمه ويديه ونبرات صوته المتفوقة بالموهبة وبالمقدرة التي عوضت ما فقده من قدرات التعبير بملامح الوجه التي تبقى متجمدة أثناء كلامه مع لغز ابتسامته المتحجرة والتي لا تتغير وكأنها رسمت على زاوية شفته وامتدت على وجنته وكامل جانب الوجه الأيمن، وقد تأكد لي بأنها ليست حقيقية إلا أني لم أتوصل لما تخفيه ويتستر هو عليه حول سر وجودها، وهذا ما جعلني أثابر في وضع التخمينات والافتراضات والغرق في التصورات التي تتحول الى جنونية ومليئة بالخيالات المرعبة أو البعيدة عن حدود كل منطق.

توقعت ذات مرة بأنها تحمل بقايا ابتسامة حقيقية تحجرت فجأة بعد ولادته بأشهر لتظل ساخرة دوما بما سيأتي عليه من الشقاء في قادم أيام حياته، فشكلت امتدادا في أعماقه كي يوجه هو الابتسامات الساخرة لجميع ما يواجه

في الحياة ويملأ قلبه ومشاعره من آلام وأحزان ويرد بها لكل حسرات تجتاحه وتحاول أن تدخل في نفسه وتحسسه بالخيبة وباليأس حتى أكتسب مع الأيام البراعة التامة في التحكم بأي أحداث وتحويلها الى مجرد مواقف سخيفة ومهازل سطحية في حياته لا تستحق الاهتمام، وتمرس في توجيه ضربته اليها بالتهكم والاحتقار كلما زادت بقسوتها وشراستها، ثم تخيلتها في يوم آخر كشاهد قبر يقف مبتسما فوق جثة مستقبله القتيل وتتهكم بمن غدر بروحه وبمستقبله وتسخر من الحقيقة المغيّبة وطمسها لوقائع الجريمة القاسية التي اغتيلت فيها طفولته ومزقت مع أشلاء مستقبله وللأبد، فتركت على وجهه هذا الرمز المعبر بسخرية عن عجزه عن الدفع عن نفسه وسخطه من خذلان ماضيه القاتل ومن عاش فيه وأسهم بتنفيذ جريمة قتل الآمال والطموح والعيش الكريم لحظة خروجه للبدء بالحياة مبتسما ورحلت تلك الروح وتبقت صورة رفاتها كابتسامة كانت تحمل السعادة فقط وظلت كما هي متحجرة ترجو بيأس أن تعود اليها الروح الحقيقية يوما وما زالت ترقب في أمل باسم للقادم الممتلئ بالغموض.

كما تخيلت يوما ما فسر لي ابتسامته العالقة بأنها رسالة تبلغني بأن الأحلام والآمال الجميلة لها بوادر مرسومة بالسعادة ويمكن أن تختبئ أو تنطلق مشرقة في ابتسامة جميلة، وبدون شك أنها استقرت على وجهه وفي ملامحه بما حوت من غموض تخلقت عبره جاذبية جمالية خفية تظل تلوح على الدوام في ظاهره

وتنتشر منه فعلا أمام كل من ينظر اليه كإشراقة من السعادة وكأنها تذكرهم بالابتسام!

إنها تناسق بديع في تقاسيم وجهه وبزوايا معبرة في تناغم يفرض روح المرح والبهجة في كل من نظر اليه، وهذا فعلا ما عجزت عن تفسيره حين رأيت هذا الطفل لأول مرة! وجذبتني ابتسامته اليه فورا كالسحر وانقدت لها دون أي مقاومة مني، فابتسامته بما فيها من غرابة وأسرار أسرتني أثناء اللعب وظلت تشدني بتلك القوى الكامنة لأستمر في الاقتراب منها وتدعوني لأقترب أكثر وربما لأشاهد ما يرتسم فيها من أحلام وآمال بالسعادة.

وبتذكري لعينيه الغائرتين فقد تمكنت في أوقات تالية من رؤية لون حدقتيهما بوضوح في لونهما العسلي الفاتح جدا والشديد الصفاء والذي يتعذر تبينه إلا من مسافة قريبة، وهما تتحركان مع نظراته برشاقة تصاحبها حركة سريعة لرمشيه أثناء الكلام وكأنهما في سباق مع ما يدور برأسه من الأفكار.

والحق لم أكن حينها قادرا على وضع هذه التفسيرات والتحليل المفصل لما ذكرت لتأثيري المباشر والسريع فور رؤيته ثم ما أخذت أسمع منه ما يستقر في نفسي وكأني أخضع لهذه المؤثرات وأجد نتائجها جاهزة وتتحكم بي وبمشاعري للحظة ودون أي تفكير أو تنظير، بل أنتقل دوما الى حيث أنتهي بالحس التام بالارتياح، فما أراه بأعماقي وأشعر به حينها كان هو كل ما يؤكد على صدق أعماق هذا الولد وصفاء سريرته ونواياه وأن ما يفيض منه لم يكن سوى البراءة والطيبة وأن جميع ما تعرض له من الآلام ما هو إلا ابتسامة ساخرة في حياته

وتتحول الى عبارات طريفة يلقيها نحو كل رزيئة وعثرة في مجاري أيام الزمن، مما جعلتني احكم عليه سريعا بأنه ليس من نوعية الأشقياء وأنه ليس خطرا كغيره من عيال الشوارع، حيث الأغلبية لصوص والبعض أشد إيذاء للآخرين عدا كميات البذاءة المحمولة في ألسنتهم من كل أصناف المصطلحات القذرة والتبجح والسفاهة حيث وجدت على سطح الأرض، كما يحمل جميعهم أنواعا من السكاكين والأدوات الحادة تعرض في الأحزمة أو تخفى في الجيوب أو تخفى تحت ملابسهم وقد تدربوا على استعمالها للدفاع أو الاعتداء مع ما اكتسبوه من مهارة بأساليب الطعن في الأماكن المؤثرة ودون أن تكون مميتة وبالغة الخطورة، فكان إحساسي من ابتسامته وبه هو ما زرع بداخلي كل الثقة ولم أتردد وأنا أدعوه للجلوس معي على عتبة البيت أو في "الدكّة"! وهي مساحة صغيرة رباعية تلاصق مقدمة البيوت ومفروشة بالرمل وتستخدم كمجلس خاص لصاحب البيت وأصدقائه، وتفرش بالسجاد بوجود والدي وأصحابه للجلوس في المساء بعد العصر وللسمر غالبا في الليالي الصافية والدافئة، والعجيب أن من دعوته اليوم كضيف للدكة هو من سارع بأخذ يدي عندما هممت بالنهوض وسار بي نحوها كصاحب الدعوة! فقطعنا المسافة معا وكأننا ولدنا معا في هذه الحارة، وأثناء السير كان ما يزال مستمرا بالتحدث وبنفس السرعة ينتقل من فكرة الى حكاية وإلى أخرى وبما يوحي للسامع أنه يروي من قوالب مخزنة وسجلات محفوظة من القصص والطرف ونوادر معدة مسبقا، ولكني أدركت بأنه يملك موهبة رائعة ولديه من القدرة الفائقة على التذكر والاختلاق والمعالجة

الفورية لما في ذاكرته من سابق المواقف وركام الأحداث التي مر بها وكأنه عاش نصف قرن، والمذهل مقدرته على جعل كل محزن وقاسي أو مزعج في الحياة ليصبح شيئا ممتلئ بالتفاهات المضحكة وأن أفدحها لا يتجاوز أن يكون سوى بسمة ساخرة لأحداث جوفاء ليس لها قيمة وتأثير.

اتجه بي إلى الدّكة وسبقني بالجلوس بسرعة وأفسح لي مكانا بجواره كضيف محتفى به، وما إن جلست حتى احتوتني فكرة لا أعرف كيف خطرت ومن أين أتت عباراتها المنظومة في ذهني كنشيد أو ربما لغناء سمعته من قبل ويحتمل مما قرأته في كتب المطالعة أو ما يحضر والدي من كتب، لا أدري؟ إلا أنها انهمرت من ذاكرتي واندفعت مسترسلة كرسالة موجهة من داخلي:

" أولاد الشوارع .. كل يوم لا يأكلون أكثر من قضمة.

يطوون بها طيلة النهار ويطوفون بها كل الطرقات

وجميع الأزقة

وحول بيوت العز يتضورون، وأعينهم الدامعة تسأل

عن لقمة ..

وبعد المغيب يتألمون من وحدتهم في الظلمة ..

ولا يجدون سوى ليال شتاء باردة تدثرهم بالصقيع ..

وهم يفترشون قسوة الأرض وقد انكمشوا بأطرافهم

وعلى بارز حجر أو على ذراع يتوسدون ..

ولحافهم ضياء أبعد نجوم السماء وعلى بصيصها يستدفئون".

هذه العبارات الغازية الغريبة طرحت في ذهني فكرة جامحة جديدة رغبت في تنفيذها على الفور، وكي لا تكون محرجة للضيف فيمتنع أو يتردد قلت له بتصميم:

- أقولك يا صاحب! خلاص أنت من اليوم صديقي،
فايش رأيك؟ أنا ميّت من الجوع وأبغى
أجيب "لُبّة (خبز) وشوية دُقة" نأكلها سوى.

أعجبتني فطنته ورده الذكي الذي لم يشعرني فيه بأنه جائع أو بحاجة للطعام بل وكان في رده السريع ما يوحي بأن له الفضل والمنّة بمشاركته لي في طعامي! إذ قال وهو يميل رقبته ويهز رأسه بالقبول بشيء من التعالي:

- والله بكيفك يا صاحبي! لكن لو جبت شيء رايح
آكل معاك مجاملة ..
وزي ما تقول كذا بأخليها بيننا .. عيش وملح!

وهكذا صممت خلال ما مر من سويعات في قرار نفسي على أن يكون هذا الولد المشرد صديقا لي ومهما حصل ومهما واجهت، فانطلقت إلى داخل البيت لأطلب من والدتي أن تزودني بأفضل ما لديها من الأكل لأن لدي صديقا جديدا وأنا أستضيفه على الدكة، وحرصت على عدم ذكر انتمائه لعيال الشوارع

وعندها أدخل في استجوابات تنتهي حتما بالتوبيخ ولا يستبعد الرفض، فضحكت أمي من حماسي المبالغ فيه وتوجَهت إلى المطبخ ولم تعقب على شيء حول صديقي وكأنما سرت منّي بهذه المبادرة كباكورة لتطلعات رجولة تحمل بذور الأريحية والكرم.

خرجت اليه بوليمتي وجلست إلى جواره ووضعت أمامنا الصحن الصغير من مسحوق الدُّقة ومددت له بقسم كبير من رغيف الفطير المخبوز بالبصل وبهارات خاصة وقال وهو يظهر اهتمامه بمن تبقى في ملعب الكرة وفي مجاملة لي كي يوقف بها أفكارا ربما تجول في خواطري أو خواطره عن فرحي بالتفضل عليه بالوليمة:

- تعرف؟ انت كنت مدوِّخ الفريق التاني؟

ولكن! لما طِلعت انت عن فريقك أتورطوا بعدك

أشعرني بما أشبع بعض غروري بهذا الإطراء لأنه يوافق ما أتصوره عن نفسي من البراعة في اللعب وأما الحقيقة فهي التي يعرفها هو وجميع من تركتهم، والمؤكد بأنهم تنفسوا الصّعداء بعد خروجي، وهو من الذكاء قد عرف بهذا ودون شك وأحب مجاملتي فقط كرد لطيف مقابل ضيافتي.

تواصلت في الأيام التالية جلساتنا على الدكة أنا وصديقي الجديد بعد غروب شمس وصلاة كل مغرب، وكنا لا نكف خلالها عن الدردشة والضحك مع ازدياد الثقة فيما بيننا وإعجابي بفطنته وظرفه أو خفة دمه، وكنا نصبح أكثر حيوية

وانتعاشا بعد أن نأكل ونشرب كل ما كانت ترسل به أمي بين فترة وأخرى، ومما حدث في تواجدنا في الليلة الأولى اني أكثرت من الأسئلة وكلها تدور حوله وحول حياته، وكنت أسأله سؤالا وأسمع منه العجاب، وبدأت بالاستفسار عن معرفة معتادة في ذلك الزمن بما تحمله الأسماء المركبة والألقاب لبعض الأشخاص من مدلولات أو نوادر في حياتهم، كأن يبدأ باسم محمد قبل اسمه الحقيقي وهناك من يكون له أكثر من اسم واحد يكون الحقيقي منها قد أختفي وأصبح منسيا وظل الآخر "للتمويه" أو كاسم يشتهر به كالاسم الحقيقي، وعادة تكون بعض أسماء "الشهرة" هذه مقتبسة عن تطابق له مع حدث أو سيرة ارتبطت بهذا الاسم أو لصفة مطابقة له في نوعية سلوكه في حياته وتعامله وربما مع نوع مهنته وقد تطلق لتطابق في شكله الخلقي وتكوينه الجسماني وربما باسم ألتصق به منذ الصغر في البيت أو في الشارع من عيال الحارة مثل لقب الأعرج والأعور مثلا أو باسم السالك وأبو ساق، وأبو راسين وأبو حطبة والدِّلخ وهكذا!

لهذا خطر لي أن أساله عن سر اسمه والحكاية وراء اسمه المركب أبو عريكة؟

لم يتوقف كثيرا ليجيب وبدا جاهزا وهو يمثل دور العظمة والشموخ والتفاخر المبطن بالسخرية وفي إبداع:

- يا صديقي! اسم "أبو عريكة" هذا هو اسم

جدي!

والاسم من قديم الزمان! ولكنه كان مختلف، فكان

اسمه "أبو المعارك"!

لأجل حبه للمعارك والحروب لأنه كان شجاع!

وقالوا كان بيد وحدة يقدر يمسح عشرة من

المحاربين عن الأرض!

ودون أن يضحك أكمل فورا مظهرا حزنه بأداء تمثيلي ساخر:

- لكن! المسكين، لما كبر وخرّف صارت المعارك

بعيدة عن شنباته صار يفني عشرة قرصان

كبيرة من البر بدال المحاربين بعدما يعركهم في

قصعة كبيرة مع السمن والعسل وفي النهاية يبيد كل

أثر لها في القصعة ويروح ينام! وبكذا

أنقلب الاسم من أبو المعارك الى "أبو عريكة"!

كدت أتشنج من الضحك على هذه الرواية الجريئة التي لا تخلو من الخرافة وربما كنت صدقتها ذاك الحين، ثم رحت وكلي سعادة أسأل في استغراب:

- طيب! أعرف ان أكثر عيال الحارات اللي زيك

لازم يشيلوا معاهم "شبرية"؟ خنجر؟ غدارة وإلا

سكين؟ على الأقل مقلمية صغيرة والا مفك؟

وأنت فين السكين حقتك؟

ابتسم مدعيا الخجل المتواضع ثم وقف في خيلاء وأدخل يده من فتحة في الجيب الجانبي من الثوب والتي تبين إنها لم تكن سوى بوابة الى ناحية سرّية تحت الثوب وحول البطن وانحنى بحركة سريعة لتخرج يده حاملة جرابا جلديا لمع في أعلاه مقبض السكين وراح يخرجها منه بالكامل، لقد طوي على مقبضها بمهارة أسلاك فضّية ونحاسية وعليها أقراص زخرفيّه مذهبة ثم رأيت نصلها لامعا بانعكاس بعض أنوار الشارع الخافتة مع المصباح الباهت الصغير بأعلى باب بيتنا، وهذا المشهد الطويل ذكره بالتفصيل منذ وقوفه وإخراج السكين وعرْضَها ثم أعادتها إلى غمدها ثم إلى مخبئها السرّي كان كحركة بطيئة للمشهد وفي الحقيقة حدث ذلك بسرعة خاطفة لم تتجاوز سوى ثواني بالكاد استوعبتها وسجلت فلاشات سريعة لبؤبؤ عينيّ والرموش الذاهلة وكان جلس بهدوء إلى جواري وقد اختفت ومكملا قوله بشيء من المكر والاعتزاز وهو يبتسم:

- لا تلمسها، تراها حادة تقص الحجر، وخليك بعيد

يا ورع!

ما أنت قدّها وقد هذا الكلام ...

قال ذلك مقهقها في عجرفة متعالية، ثم بادرني بسؤال كان ماكرا ولا أعرف كيف توصل لنقطة ضعفي وأخرجتني فورا من شعوري بالإهانة بما قال وتحولت الى السعادة الغامرة، حيث في إجابتي الرد لكرامتي المسلوبة من استعراضه المدهش أمامي بالسكين إذ جاء بالشيء الذي ظللت افتخر به منذ بداية

الصيف ويملاني دوما بالغرور، فأجبته بغروري هذا بعد أن ألقى سؤاله الي باعتباري رجل مكتمل ومُهم ومعتد بنفسه:

- **قول لي انت تدرس في المدارس وإلا كسيب؟**

فقلت في عنفوان الزهو:

- **أيوه! أنا أدرس! ونجحت للصف الخامس وبدرجة ممتاز!**

هز رأسه مرات وقال في سخرية:

- **هيّا عاد! بلا "هلس" و "كَلَك"! انت للساعة زغلول زغير!**

ويا دوب عليك سنة أولي، وحتى كثيرة عليك سنة ثانية!

طيب خلّينا نقول انك سنة ثانية، مع أنها والله بخسارة عليّه، والله!

ثم أضاف متهكما لعدم قناعته وتصديقه لقولي:

- **يا عم فيه أكبر منك عشرة مرات وبشواربهم**

ويا دوبك في سنة ثالثة وانت تقول لي خامسة!

تمرش على مين؟ ...

زادت كلماته من افتخاري وأشبعت غروري وكادت تحلّق بي عاليا كالعصفور فعلا ولكن عليّ إثبات ذلك أولا، وهذا سهل! فالشهادة موجودة، وحتى لا أصبح فعلا محل سخرية فقلت مبررا وموضحا صدقي في حماس:

- أصل أبويا متعلّم! وكان يدرسني قبل ما ادخل المدرسة ..

حتى انه دخلني أدرس وأنا صغير ..

هز رأسه عدة مرات للأسفل وللأعلى وعينه اليسرى تغوص تماما في جفنها ثم قال مظهرا الموافقة في قناعة وربما ليرضيني:

- أيوه! يمكن كذا معقولة ..

أراحني سماع إجابته باعتقادي المتضمن بأنه شهادة بتصديقه لي وألا وجب عليّ عندها أن أحلف وأقسم مرات وان تطلب أحضاري لكل الشهادات ووجدت أنه وفر عليَ هذا وأثبت اعترافه برفع كتفه مع إمالة رقبته معبرا عن صدق الاحتمال وإمكانية الحدوث ثم عاد يسألني:

- على فكرة! فين أبوك ماني شايفه خرج من البيت ولا دخل؟

فأجبت:

- أصله يسافر (جدة) في شغل مع الحكومة هناك، يروح ويرجع ..

وفجأة هتف:

- أيوه، ذكرتني بالشغل؟

ورحت أسأله بدهشة:

- ليه؟ أنت عندك شغل؟ يعني انت تشتغل؟

وقدم لي إجابته شافية وفرت عليَ بقية تساؤلاتي:

- أيوه! أشتغل في "الحَلَقة"، وكمان أنا لازم أنام بدري في مسجد "العباس" وإلا "الهادي" حتى أقدر بعد الفجر أنفلت للحلقة أحمِّل وأنزّل الخضار من العربيات ..

وبحركات التحصيل والعد النقدي:

- وأجمع لي منها كم هللة وبعدها أضرب الفطور وبراد شاهي منعنش في قهوة، وأرجع أوصِّل مقاضي للبيوت وبعدها أروح "أتهجول"!

الطريف إن العبارات في إجابته مليئة بالتفاخر وفيها الحس بالقناعة والرضا مع السرور بعمله، وان شغلني ما أردت معرفته مما ذكره من عبارات غامضة مثل عبارة

"الهجولة" وسرها؟ فاستزدته سائلا:

- طيب عرِفنا النّومة والقومَة والفطور!

طيب والغداء والعشاء؟

ووضع في إجابته الشافية كل التفاصيل وأيضا وفر تساؤلاتي الأخرى إذ قال وبنفس الروح:

- ما هي مشكلة عندي! متى ما أزّمت وما عندي

فلوس أروح لضيافة الأمارة في شبرا، وهناك

تلاقى بشر وخَلْق يا ما! ومن كل بلد، ومطابخ

الأمارة ترسل صحون اللحوم والرّز والخدم رايحة

فاضي جايّة مليان، والحمد لله رب العالمين

فالرز! ما نلاقيه غير في شبرا يا يابا!

في هذه اللحظة بدأ عليَ التوتر وقلق مباغت يفسد مشاعر السرور والمتعة، فقد سمعت صوت والدتي من وراء باب البيت دعاني لمرة واحدة ولم يتكرر، فعلمت بخبرتي أنها إشارة تنبيه بقرب الوقت للاستدعاء ولتأكد حالة التواجد

ويستوجب الاستعداد لأمر الدخول والتنفيذ الفوري فسارعت أمهد لإنهاء السهرة مع استغلال ما يتبقى من وقت للحصول على إجابة عن أمر يشغلني:

- طيب! أبغى أسألك سؤال قبل ما أروح أنا لأمي

قول لي انت أبوك وأمك واخوانك فين؟

توجه ببصره نحو أفق السماء المظلم وأظنه يبحث عن تلك النجمة التي ربما يرتبط بها بعلاقة ما وكأنه يأتمنها على ذلك السر أو يخفي لديها أهم أسراره ثم عاد ينظر الي بجدية وعيناه تشتد ضيقا وقال منهيا الأمر بحسم:

- والله أنا يابا .. جيت من جبال بعيدة، وغير كدا ما

أعرف! ولا تسألني!

بهذه الإجابة المقتضبة والمبهمة ودعته في تلك الليلة وأنا في غاية السرور وعلى أمل أن نلتقي مساء الغد، ورحل وقد رأيت على وجهه ابتسامتان توصلت حينها الى مقدرة اكتشافهما بمهارة الخبرة فما تحمله النسخة الجديدة فكان شعوره الحقيقي بالسرور مع كثرة الامتنان بكسب صداقتي وهي موازية للطبعة الأصلية للابتسامة الغامضة والدائمة الظهور والثبات.

*****

استمرت بعد ذلك صداقتي مع (ابن الجبال) كما أصبح يحلو لي غالبا أن أناديه بهذا الاسم أو الكنية، وفي الأيام التالية لم أجد صعوبة بالحصول على تقبل عيال الحارة والآخرين له حتى أعتبر لاحقا كفرد من عيال الحارة الشرقية، وكان قرر أن يترك تماما حارته السابقة بعد أن وجد الحب في حارتنا والكثير من العطف بين أهل الحارة وأصبح يستمتع بحق الانتماء لها من كبارها والبقية لتميزه عن غيره من عيال الشوارع بسلوكه النظيف والمعاكس تماما لممارسات الأشقياء منهم وعاداتهم السيئة، فأغلبهم أشرار اعتادوا العيش باحتراف السرقة والاحتيال والتسول مع سوء الأخلاق، في وقت هو أختار الكفاح ويجتهد في العمل بتكسّب عيشه في سوق الخضار وحملها الى البيوت وبطرق شريفة، وبتجربة واختبار أهل الحارة له عرف عنه الكثير وأهمها الأمانة والصدق الى جانب ما عرف عنه وأشتهر فيه من حب للتندر واطلاق التعليقات الساخرة متى وأينما حل، فأحبته بعض عائلات الحارة وأصبحت تستخدمه وتعتمد عليه في قضاء مختلف حوائجهم وإحضار طلباتهم من –الحلقة– أو سوق الخضار ومن المتاجر في وسط البلد، حتى أنه يعطى النقود للشراء دون خوف وتردد أو يرسل بأشياء ثمينة ومهام خاصة وهم واثقون به وبأمانته، ومن مميزاته المحببة لهم تقبله كل الأوامر عن طيب خاطر ودون تلكؤ ومن الجميع، ويقوم بكل عمل بلا اشتراط كما يفعل غيره ويتقيل ما يعطى من قروش وهللات إن تيسرت أو أي شيء من الطعام الجيد أو الحلويات ولكنه ظل يرفض أمرين وبشدة،

ورفضه القاطع كان للخدمة داخل البيوت كصبي مع رفض أخذ الملابس ولم يتقبلها أبدا إلا من والدتي!

وجاء تقبله هذا بعد بدء صداقتنا بأيام وبعد معارك من الرفض والامتناع من والدتي وواجهنا معا في البداية صعوبات بالغة لجعله يتقبل أي ملابس نظيفة ومناسبة حتى واجهته أمي وفي حزم يحمل التهديد والتأكيد الصادق بأنه إذا لم يكن نظيفا وكذلك ملبسه فلن تسمح لي بمصاحبته، وستجعل جميع عيال الحارة يتجنبوه ولن يقبلوا به في الحارة وبجلوسه والحديث معهم وعندها أذعن وتقبل الواقع وان على مضض وانتهى إصرارها هذا عليه بتعوده على النظافة ولبس ما تعطيه من ملابس جيدة من ملابسي وهذه شروط حتمية لتقبل بصداقته لي، وما هي إلا أيام حتى تغير مظهره في الحارة وبقي بعدها على نظافته وحسن ملبسه ومظهره دوما. وان كان صمد على رفض العمل في أي بيت ولدى عائلة كصبي لرغبة الكثير به وكانت تلك الفرصة أمنية لجموع الصبية ممن يقْدِمون الي البلدة من القرى البعيدة، وظل يفضل حريته وعمله في "الحلقة" في تحميل الخضار والمقاضي الى

بيوت المشترين.

بعد أشهر بدأت الدراسة وأصبح يغادر الدكة بعد أن نتحدث قليلا عقب صلاة المغرب ونادرا ما نبقى حتى الآذان لصلاة العشاء، فهو يرفض النوم في بيتنا أو أي بيت ليبعد الإحساس بأنه صبي أو مجاود ويذهب كالمعتاد للبحث عن أقرب الأماكن المفضلة والأقرب لسوق الخضار لينام فيها وهي في حارة وسط

البلد ليصلها مع الفجر مبكرا ويباشر بعمله في تحميل وتنزيل الخضار من العربات –الكرو– المحملة من البساتين حول البلدة ثم يتدبر أمور وجبة الإفطار في–القهوة– برغيف مع شاي ممزوج بالحليب أو بصحن معتبر من الفول وأحيانا طبقا من المعصوب أو "التقاطيع" المقلية في الأصباح الجيد المردود، ويعود على عجل مرة أخرى للبحث عن أرباب الأسر لحمل وتوصيل مقاضي بيوتهم اليومية الطازجة، إلا اني أراه وبانتظام في وقت الظهيرة عند خروجي من المدرسة، فيسمعني سيلا هادرا من الحكايات وبآخر أخبار السوق وأحداث يومه المثيرة وما جد وواجه من مواقف السخرية المميتة من الضحك كوجبة يومية خاصة بي بينما يتناول ما اختزنت له معي من فسحتي بنصيبه المعتاد.

في بعض الأيام أكتشف أنه لم يذهب للعمل وأنه كان يطوف منذ الصباح حول المدرسة حتى خروجنا. أما أهم صفتين لم ولن تتغير فيه أبدا هي ابتسامته الغامضة ثم محبته للجدال الساخر ومع أي كان مهما كانت منزلته طالما نجح في وضع نفسه في الجانب الخاطئ، ليتحول الى سخرية شديدة السخونة يسمع عنها أحيانا معظم من في الحارة، كما يحدث معه عادة وتدور بينه وبين أحد من أصحاب المحلات من مجموعة المتاجر المتوزعة كسوق صغير في نهاية زقاق الحارة الكبير الممتد حتى أطراف الحارة باتجاهيه، وهذه المواقع يحظر علي وصولها دون مرافقة والدي، لذا لم أحضر شيء من تلك المواجهات، ولكن أخبار معظمها تثير زوبعة من الشهرة والانتشار في الحارة وتردد كدعابات

بريئة تجعله بطلا حين تطال تجار ومعلمين وأصحاب ورش بعينهم ويتضح بأنهم مكروهين أيضا من بعض أهل الحارة حين يقوم بفضح شيء من مساوئهم، وان لم يسبق أن حدثني بتفاصيل عن بعضها أبدا بأكثر مما تقال وبما فيها من نوادر وطرف.

لكني توصلت لمعظم أسرارها في أوقات وأزمنة لاحقة وبعد أن أصبح لها اهتمام خاص لتوقعي بأن هناك أسرار خفية وراء معظم سخرياته والنكات والنوادر الشنيعة أحيانا التي أطلقها على عدد معين من المعلمين الكبار ولم يعقبوا سوى بصمتهم الغامض ولم يعاقبوه بطرده من الحارة، فخمنت أمورا ليست عادية أو عابرة بل تخفي خلفها أسرارا وربما جرائم خفية مدهشة وما يدفعني لذلك هو المامي التام بأساليبه وإحاطتي بقدرته وذكائه في التصرف والمواجهة للتخلص من المشاكل والتي تؤكد لي بأن الداهية الصغير فتش وتوصل الى مثالبهم ونقاط ضعفهم وعرف ما ترسخ فيهم من عيوب وما لديهم من ممارسات في حياة سرية يخفيها هؤلاء الرجال الكبار وحرصوا على سترها خلف دروع من الهيبة وأنواع الكبرياء الزائفة والنفاق وفي التعامل مع الغير بالصرامة وبالجبروت ولكنه الخبير في فك مثل هذه الطلاسم.

لهذا امتلأت أنا بالشك بأن وراء هذه المواجهات مع بعضهم وبسبب تجرؤه عليهم وبخبرتي التي تعمقت في أساليبه بأن ما يسمع من السخرية ما هي إلا معارك جانبية مموهة لاقتناصي لاحقا ما حول العبارات المشفرة المرسلة منه لهم ولا يرى الآخرون فيها سوى الصور الساخرة والمرحة العبارات الشامتة حتى

وان أظهرت الآن تفاصيلها كمعارك حقيقية كبيرة خفية قادها طفل مشرد نحيل الجسم وضعيف الإمكانات وبلا معين ولا سند ولكنه سخر وأخرس بعض من أشرس الرجال ومن أعتى المعلمين ومن أغنياء رجال الحارة فيصبح مثل هذا الخوض مجرد افتراء وابتلاء أو يجعله إسراف مني بالتوهم ومبالغة في تخيل الأمور، والإجابة على هذه التهم يدخل الشك في سلامة عقلي وهذا أجده رد طبيعي.

لأن فارسها مجرد طفل مشرد ومعدم ماديا وفي غاية

الضعف الجسماني وليس من يقف الى جواره ويحميه يعيش في وسط مجتمع ثري متماسك والأحداث التي يفعلها تصبح مستغربة لكونها أولا سخرية ولكنها محملة بالإهانات أو بما يعتبر– طوالة لسان– تستوجب انزال أشد العقوبات ولكن التمحيص فيما بين سطور ومفردات أي سخرية اطلقها على البعض يؤكد اطلاعه بطرائق ما على معلومات خطيرة في حياة هؤلاء وهو يستخدمها بالتلميح كتهديد يلزمهم بالصمت ويلمح فيه أن عليهم التخلي عن ممارسة حطيئة ما أو ترك سلوك ما مكروه عرفه ويعتبره عدوانية أو غطرسة ويرسلها تحذيرات ووعيد بفضحهم وكشف العيوب التي علمها ويخيفهم خروجها.

والشواهد على وجود مثل هذه التفاصيل الخفية ستجعل منها حكايات مشابهة للأساطير، والسبب أن الشخصية التي قامت بها بعيدة عن التصديق وفيها ما يشكك في قدرتها على تبني مثل هذه الأفكار وتنفيذها بنجاح ينسب الى

الأساطير والسرد لها يعتبر مجرد تخمينات وتكهنات وخيالات تحمل أفكار غريبة وتلميحات مريبة.

ولا شيء من الأقوال المدعومة سيكون في صالح الطفل المشرد في الحياة بحقارة مظهره وحجمه الظاهر للنظر فكلها ستغفل حقائق عن تجاربه الكبيرة وأبعادها التي تراكمت في تلك النطفة الضئيلة حتى أصبح قادرا وبسهولة على معرفة كل ما يدور في محيطه من نوعيات الناس والأخلاقيات وتشرب بتفهم جميع ما فيهم من إيجابيات وسلبيات لهدف عظيم وحيد يتمحور حول حماية نفسه، في غابة وجدها مكتظة بالمفترسات، فتعلم كيف يظهر الضعف ويبلغ بينهم أعلى مستويات الطيبة والصدق والأمانة لينال كل الثقة ولكن بذهن واع ومتربص لمعرفة نقاط ضعف كل مفترس حوله، وتحييده مؤقتا ولكنه دوما في جاهزية للدفاع وحماية نفسه وبالهجوم فقط بأسلحته الموهوبة والسرية التي يخفيها للحظات المطلوبة وفي أوقاتها المناسبة تماما، وهي بعيدة عن استخدام القوة الجسدية التي لا يملكها أبدا، ولا يستخدم سوى أصغر وأطرى عضو في جسمه وهو لسانه الصغير.

والأعجب أنه بهذا أخضع وأذل أشرس المعلمين وأشدهم قوة وتسلط على أكثر الناس وما اتصفوا به من جبروت بالتباهي بشخصهم ومالهم والتفاخر بإنزال الأذى وإذلال الضعفاء بأيديهم وتبجحهم بالشتائم البعيدة عن الآداب والأخلاق، فما ملكه المشرد الصغير من ذكاء ومقدرة احتيال واسعة قام باستغلال مظاهر ضعفه وتصنع معها البلاهة حينا وشدة الإخلاص أحيانا مع

هؤلاء لهدف ومبتغى معين يحرص على معرفته بكل حواسه وقدراته وهو يقوم بأدواره بكل إتقان وبراعة تطمئن هذا المعلم وتغري ذاك وتسهل لآخرين استغلاله كأن لينفذ لهم مهام سرية مختلفة، كما تنقل بينهم بخدماته وعرف معظم خفايا هؤلاء المعلمين بدهائه وعبر مؤامراتهم للاطلاع على أسرار بعضهم، وبعد فترة وفجأة قت يجده كل منهم يجلس أمامه في المحل كسيد ويطلب واجب الضيافة وان كانت بعيدة عن أنظار الناس لحفظ مكانتهم!

لاشك دارت عليهم في لحظات جنونية ولكنه أوصل رسالته الخاصة بكل منهم وما حملت ليكتشف هؤلاء لاحقا وبذهول بأنهم كانوا أغبياء وأصبحوا الضعفاء ووجدوا أنفسهم أسرى صمته حين فاجأهم بما رأى وسمع وعرف عنهم من عيوب وخفايا وسلبيات في حياتهم وفي تجارتهم، وأفزعتهم عبقريته في استيعابه وجرأته وشدة البلاغة في استخدام لسانه بفصاحة وبحصافة، ليكون سلطان لسانه هو الأقوى، فوجدوا فيه عجائب مقدرته في استخدام أساليب "البهللة" وهي تحمل تعبير يقارب "الفهلوة" المصرية ولكنها تعني لنا البراعة في إدارة أي حوار بالتلاعب بالألفاظ والعبارات في رمزيات تقلب الواقع والحقائق وتذهل السامع وتشتته فيصاب بصدمة الحوار ووقوعه في حيرة، نتيجة لاستخدام الذكاء ومقدرة اللسان على التلاعب بالمغزى وتطويع الألفاظ لمناحي مشفرة وغامضة توحي لشيء ما أو لشخص ما بينما مسار الكلام يتجه لهدف آخر مرسوم، وهو أسلوب يستخدم كأخطر سلاح للبارع في الحارات ومن المشاكلة ويطلق عليهم في بلدان أخرى شطار وفتوات وقبضايات وبلطجية والمعلمين

في الحجاز لها معنى أجمل يضاف الى صاحب العلم والخبرة في حرفة ونوع من الصناعة، فهؤلاء في الحارة والشارع وجلسات القهاوي لهم اجلال خاص وفي لحظات التحدي فيما بينهم تكون لغتهم لتدبير وتمرير أي مصالح فتكون البهللة للتظاهر بالفهم والحذق ويستخدمها الرعاع لإيقاع الغير وتسهيل الهجوم والوقاية أو للنجاة من أحرج المواقف بتحويلها لأساليب من الكلام الزائف للتمويه في الأزمات لتظهر الآخر أمام نفسه بأنه ضعيف وغبي وساذج.

وبهذه الأساليب كان الولد الفهلوي الصغير يسخر من المعلمين الهدف بحبكة من النكات الذكية وبصوت عال وأمام جموع من الناس، ليستوعبوا أخيرا بأنهم كانوا ألعوبة فعلا وضحية لهذا الطفل التافه وأنهم سمحوا له بأن يخدعهم لفترة وقد أمسك عليهم وضدهم أخطر أسرارهم وعرف عنهم أسوأ عيوبهم بل أخذ يستخدمها ضد البعض منهم في أي وقت ومكان فيتوجب عليهم عندها الحذر وتقبل نكاته عليهم وأحيانا تطاوله في استسلام غامض يظن بأنه نابع عن تسامح أو عطف وفي الحقيقة هم تحت أسلحة تهديد خفية، فما تمكن من معرفته وملك من الأدلة لا يمكن أن يصنف إلا كحقائق دامغة ولا يمكن دحضها والادعاء بأنها كلام جنوني وتخيلات طفل مشرد!

تأكدت حقا من مقدرته وموهبته بفضل ما أحفظه ومما وصل من أخباره ورشح عنه وما لمح به في مواجهاته المشهورة وتداولها الناس وبالتحليل والتدقيق في تفاصيل أقواله الساخرة ببعض المعلمين وغيرهم من المكروهين أيضا بين أغلب

أهل الحارة والربط بينها وبين ما تبين لي مما تفضل به علي فيمن دبر لهم ونفذ فيهم الحيل والكمائن ليوجهها لهم لاحقا كصفعات موجعة لأسوأ الرجال والمعلمين أخلاقا من أهل الحارة في إذلالهم علانية وإجبارهم أيضا على الصمت، وفي نفس الوقت منتزعا منهم احترامهم لأنفسهم!

ولكن الحق لم أعرف تماما أي تفاصيل دقيقة حول أي منها كما أنه هو لم يفضح أو يشهر يوما بأحد من هؤلاء ولم يعلم أحد بحقيقة ما كان قد حدث في الخفاء مع أي منهم أبدا بينما لا يظهر عليهم سوى الصمت أو ابتسامات باهته بينما الحضور يجدون متعتهم بما يسمعوه من سخرية ونكات وتعجبهم قدرته المشهورة وجرأته على السخرية بهؤلاء الكبار وهذا يعتبر كاف لإسعادهم وشفاء قلوبهم مما يحمله بعضهم ويرضي رغبتهم في هذه الشخوص وليس المهم لديم كيف حصل ولماذا؟

الأعجب أنه أيضا لم يبتزهم يوما وكان سهلا جدا، ولم يستخدم كل ما عرفه للتشهير بأحد منهم بالعيوب والأسرار التي وضع يده عليها وفيها ما يدمر تجارة هذا الشخص وسمعته وسمعة أهله في الحارة ، والمؤكد أن فيها تحطيم كامل لحياته وبعنف وربما قد تميته قهرا وحسرة، ولكن هذا الطفل الخارق يستخدمها ببراعة أثناء توجيه كلامه الساخر اليهم وما فيها التعليقات المهينة مصحوبة بما يريد فقط إرساله وما يطلب منهم في رسائل مشفرة بتلميحات يفهمها الشخص المعني كتهديد له بعدم التمادي والتوقف عن العدوان أو عما سبق رؤيته من محاولات الامتهان له أو على أحد ما من الضعفاء وبما يعتبره سلوكا شائنا قبل

أن يلجأ لفضحه فلا يجد الرجل من ورطته وحيرته إلا أن يتضاحك ببلاهة على ما يسمع من الطفل من إهانات ويعتبرها الآخرون نكات جريئة. ليته كان يطلعني على كل تلك التفاصيل الخفية وبما دار في حكاياته معهم، لكنت ملأت منها جعبتي وزينت بها مذكراتي وأضاءت لي كهوف الذكريات.

ولكن لعمق خبثه كان صاحب مقدرة جبارة على التكتم وحفظ ما يراه من الأسرار الخطرة وهي أقوى من محبته للكلام والهذر دون توقف بما يجعل طول الصمت أشد ما يؤذيه، فكونت براعته إجادة التحليق والحوم والسباحة والغوص لإبقاء عيون وأسماع وفهم من يتحدث اليه ومن يستمع بعيدة تماما عن تفاصيل الأسرار، فأجاد الالتفاف وببساطة حول جميع النقاط والحدود الخطرة ولهذا كان ناجحا في التحاشي وتجنيب نفسه مخاطر هفوات اللسان.

فالطفل الكبير أحمد أبو عريكة لديه حاسته وخبراته والبراعة التي يجبر بها ضحيته ويطوعها لتنبش له أسرارها وتستخرج كل ما تخفيه أمام طفل حقير وساذج لا يرى فيه قدرة للإدراك أو يتوقع منه أدنى خطر مهما عرف فترعبه المفاجأة حين يجد نفسه في قلب الخطر وأسيرا للسان الطفل المهين، واكتشافه بأنه هو المتسبب بأزمته ومن وضع بنفسه وبيده حبل المشنقة حول عنقه وجعل مصيره معلقا بيد هذا الصغير حين تجاهل خطره في غرور ومكنه من الاستطلاع على خفايا أسراره احتقارا من شأنه، ولم يعلم بأنه كان يراه على

صورة السذاجة والغباء التي يبدع برسمها الطفل عن نفسه ويتقمص بها ليقنع هذا الرجل أو غيره ليبتعد عن تحفظاته وتخرج عيوبه وبلا مبالاة.

كأن يكون هذا الرجل سكيرا أو يتعاطى أنواعا أخرى من المسكرات أو يصنعها ويروجها في الخفاء وهذه تعتبر جرائم عظمى في هذا الزمن كجريمة دينية واجتماعية وربما يتعامل بأشياء أخرى من المهربات والمحظورات وغيرها من المساوئ الأخلاقية وأهمها العلاقات المحرمة، وكشف مثل هذه يؤذي رجال معروفة بما يؤدي لهلاكه الحقيقي، وربما هناك من أظهر للطفل ما يمارسه خفية من أنواع الغش في تجارته أو بضاعته، وهذه الأمور مخيفة النتائج بين الناس، فإظهارهم عليها يمثل خطايا لا تغتفر ولا تنسى في مجتمع شديد التحفظ وتعني القضاء الفوري على حياة التاجر وضياع سمعته ومصداقيته وأمانته للأبد.

المدهش أنه كان يختار أشخاصا عرفها بالتحديد لرؤيته الخاصة بهم اثر تعرضه لاعتداء أحدهم عليه أصابه بالضر أو أضر بغيره من الضعفاء في يوم ما ويراه سلوكا متعمدا ومعتادا منه وفيه كل الإيذاء والاحتقار، بالضرب أو بالسب والشتائم بأقذر الألفاظ والمعاني وكان يرى أنهم ضعفاء وضحايا لجبار وهم عاجزون عن الرد والدفاع فيكون هذا المتجبر أو المعلم قد حصل على أحقية رصده والتربص به من قبل المشرد الصغير للعثور على أسوأ العيوب وهذا يراه عدلا يناله كل متجبر متعالي على الفقراء وأصحاب الحاجة والشحاذين من العجزة والصغار في السن والنساء.

الحق! أنه لا يستخدم ما وجده عليهم إلا بعد تجاهل الرجل للتلميحات والتمادي بتكرار الأذى والإصرار على الظلم فيستوجب هذا لجمه بعدد من لكمات السخرية اللفظية العنيفة والتي تحمل فيها التحذير بالغمز وباللمز مع الوعيد بفضح ما عرف عنه وتكون همزا ولمزا بأعلى صوت في حضرة جمهرة من ناس الحارة وبالرموز التي يفهم الطرف الآخر معناها وما يتوجب عليه.

قد يبقي الظن بأن هذه الأفعال والرؤى بأنها توهم يتحدث عن وجود طفل صغير مشرد ظهر في زمانه وأظهر للناس بأنه يسعى لتحقيق مشروع مبكر كثائر صغير من المشردين، وانه حمل لواء الإصلاح الاجتماعي في البلدة وهو في سن الطفولة، وانه كان فعل المعجزات وتصرف بناء على أفكار عبقرية من عقيدة مترسخة كانسان نبيل. وهذه الظنون تحتمل الصدق في التخيل كما تحتمل الصدق أيضا كحدث حقيقي واقع متى ما وجدت فعلا ما يدعم بالبراهين كل ما يؤيد صدق ما أروي. وهذا جعلني أطيل الكلام الآن والتفكير سابقا بالتعمق بكل اللحظات التي عشتها وعايشت ذاك الصديق العبقري باحثا عما يكتشف ويثبت عنه كحقائق خلال العودة بالذاكرة كرات ومرات للتمحيص في تفاصيل كل الأحداث الماضية مع أنها حدثت في مرحلة زمنية قصيرة من حياة الطفولة.

ولا أخفي أنها مراجعات تحقق دقيقة وان كانت ما تزال ممتلئة بالحب والعاطفة لكنها شاملة وتختلف في المنظور لما كنت أراه بنظراتي السطحية السابقة والمحدودة بعواطفي فقط في أغلب المواقف، ولكنها الآن متزامنة مع رؤية أخرى متأنية بعيني كرجل ستيني حنكته التجارب القاسية وعسى أن تبتعد شيئا

ما عن المؤثرات المباشرة في حياة الطفل حسين والتي ظلت تنطلق منذ لحظة اللقاء به متدفقة بالأحاسيس المدفوعة بسرعة الانبهار وسهولة تأثري وانجذابي لكل جديد، فتندفع مخيلتي دوما وراء كل ما يشكلها ويخلق فيها أفكارا تفيض مني بعيدا في خيال واسع ومع حب للبهرجة والتباهي ،كما حدث وحلق بي طويلا بعد تحقيقي للنجاح الأسطوري من الصف الرابع الابتدائي ولم ألامس سطح الأرض كل ذلك الصيف!

وأستمر تفكيري في التحليق اليومي بما يستجد برحلاته الخيالية مع مسلسلات من السوالف والحكايات المبهرة والتي تجعلني أتمرغ على الأرض من شدة الضحك بينما تدور بين طفلين بعد كل غروب للشمس على سجادة من بطحاء وادي وج الناعمة في دكة والدي المسافر وتحت وميض نجوم يبدأ واهنا مع تلاشي ضياء شمس آخر النهار حتى تصبح في كامل نشاطها وتباشر مسيرها في رحلة كل ليلة عبر مسارات المحيط الكوني المظلم التي رسمت على سواد صفحته عبر تشكيلات المجرات والتحالفات النجمية القديمة والتكتلات المتوهجة من نجوم وكواكب متخذة من أشكالها رموزا تثبت استمرارية وجودها ووحدتها المعلنة منذ بدء الخلق لتظل متألقة حتى تفيق الشمس صباحا وتبتلع أشعتها كل ظلمة الليل بنجومه ومعها كل ما دار فيه من أسرار وتخرس أيضا ما كان يسري في صمته من الهمس والحكايات وما أخفي في ظلمته من المعاني، كما أضفت للتمحيص جميع ما كان قيل في كل ظهيرة ودار بيننا من أحاديث سريعة في الطريق الى البيت بعد الانصراف من المدرسة، وأخيرا وبالتمعن فيما

وجدته من تفاصيل في أبعاد مناحي البهللة والتشفير في الكلمات التي تنافرت من فمه أثناء مشاحناته مع أولئك الرجال واسترجاعها بتصور آخر للمعاني الخفية الكامنة في ألفاظه لتفسير مدلول التلميحات الساخرة في النكات والملح لكشف بواعث هجومه السليط على بعض المعلمين، وبالتحليل والتعليل لصمتهم المشبوه وسر خنوسهم أثناء وعقب عاصفة التطاول والتندر عليهم والشماتة بهم ، فكل تهديد يحمل غموض وهناك الكثير منه يجري خلف شخصية ذاك الطفل وهو يشبه تماما ذلك الغموض المغلق خلف ابتسامته المبهمة! وهي ممتلئة بالشك كعدم التصديق بوجود عبقرية حقيقية في مثل هذا الطفل المشرد!

فالصديق ابن الجبال! أبو عريكة والذي أصبح هو الصديق الوحيد في حياتي وآخرهم أيضا كان ولفترة قبل توغله في عمق حارتنا وأهلها وبحياتي وبحكم تجاربه السابقة وعيشه في حارات جميع أهلها هم من التجار والحرفيين وأختلط بينهم ومع كل الأطياف وفي حارات وبلدان أخرى على الأرض كما ظهر لاحقا فلابد أن يفد الى حارتنا والتي مع انشقاق نور الصباح هي وجهة جماعات وعينات ممن يقطنون حولها في الحارات ومن خارج البوابات القديمة كباب الريع وباب اليمانية وشبرا

والسليمانية، والبوابة الشرقية.

كان بعض القادمين للبلدة والحارة القديمة في شقاء وكفاح دائم بالبحث عن فرص العيش وبأي عمل يؤمن لنفسه الخبز والملجأ للمبيت، ولا شك يمكن

تخيل ما واجه هذا الطفل الوحيد وبهذه السن في زخم مريع يحيط به وكم تعرض لحملات مختلفة وصفعات مؤلمة ومن أنواع الاضطهاد والتعسف والتحقير، وأقلها ما يتلقى من أنواع الشتائم. فقد عاش في صراع يومي وعانى من أغلب المعلمين وأرباب العمل لأن مثل هذا ما كان يحدث في الآخرين من قبل لمثله من الأطفال الفقراء المشردين أو أولاد الشوارع في وقت كانت أصبحت الأفعال والسب بالعبارات البذيئة ثقافة مجتمع، وعادة تنطلق من الأفواه هكذا بكل البساطة وللتفاخر من أكثر المعلمين وأصحاب الورش ومالكي المتاجر ومحلات بيع الأكل والمشروبات إن لم يكن جميعهم.

ولأن هذا الطفل يتمتع بالذكاء الفطري وبالمرونة ومقدرة عجيبة على الصبر والتحمل فقد أكتسب معها الروح المرحة والبراعة في خلق العلاقات وانتزاع الثقة التي تمكنه من الوصول لأهدافه وبعد النظر في التعرف السريع على أغلب العينات وكيفية التعامل معها وبمقدرة سحرية لكشف ما تحت ثياب النفاق من خطايا وممارسات لا أخلاقية أو اقتناص طباعهم السيئة الممارسة في السر، كانت حاجة للحياة وهواية تتطور باستمرار وتعلو ثقافته في الاستخراج والرؤية المسبقة للمشاعر والوصول السريع لنقاط الضعف ومكامن الخوف ثم الاستمتاع برسمها كتعابير ويتفنن بوضع علامات القلق أو الهلع على وجوه الفئات الطاغية والتي تمارس الجبروت والتعسف ضده وضد الضعفاء، فقد عرف كيف يتسترون خلف حجب من العظمة.

تخلقت فيه تلك الثقافة عبر تراكمات التجارب السيئة والمؤلمة منذ بدء حياته وأحدثت في أعماقه الكثير من الجراح الغائرة وأشدها ما أتصل بها من أحداث بعد ولادته وبدء أول مراحل الوعي ليواجه ظروفا في منتهى القسوة لم يستطع بالتأكيد حماية نفسه منها لصغر سنه وضعفه وفرضت عليه الهرب ركضا نحو المجهول من رعب الدار التي تفتحت فيها عيناه ومن ثم من القرية التي ينتمي اليها ليشق الأودية وجبال الحجاز الشاهقة حتى حط الرحال في هذه البلدة الحضرية الكبيرة.

هكذا بدأت أقداره بمرحلة جديدة كأحد عيال الشوارع.

هو الآن يعيش حياة التشرد وهي امتداد لغزوات من السلب القهري المتتالي لأغلى الأشياء في جميع حياته، وتشن عليه دوما من قبل طغاة كالرجال.

كان أولهم ذلك المهم وأقوى رجل في القرية والمالك لمعظمها من الأرض والناس وكان حيواني الشهوة في محبة النساء وله صولاته في قريته الصغيرة، وهو الرجل الذي فرض نفسه على أمه قهرا وبعد أشهر قليلة من اختفاء والده في رحلة السفر الغامضة والتي يتردد همسا أنها في مصلحة تخص هذا الرجل المهم، ثم لم يعد أبدا بل لم يتبين له بعدها أي أثر.

وما يتخلف عن كل حدث مماثل سوى صمت مطبق في كل القرية، فليس هناك من يجرؤ على التساؤل أو القول أو الرفض أو مجرد إبداء تلميح بعدم الرضى، وبالأخص حول ما يطلب أو يريد امتلاكه هذا القوي أو وما يرغب

بالوصول اليه، ولكأن والدة هذا الطفل أرضعت لبنها كراهية الظلم وهذا ما اظهرته يوما من الرفض بشجاعة وعلانية وهو ما واجهت به ظلم ذلك الرجل القوي بكل قوة وبرغم إجباره لإمام القرية على عقد قرانها دون قبولها أو وجودها ولا علمها!

هذا بلا شك له ردة فعل انتقامية من الرجل القوي، وكان مريعا حقا، حيث أصبح ثمن هذا الاعتراض والاحتجاج منها ما استوجب سحقها ، فبدأ أولا بمحاولات قتل أرادتها باستمرار تعذيبها وإهانتها ردحا من الزمن بكل وسائل التحقير والاضطهاد حتى اختتمت ذات ليل بمسرحية دوت فيها أصوات طلقات نارية في سكون الليل سمعت حول المعزل الصغير الذي أختاره لها ولطفلها الذي أرغمت على العيش فيه للتنكيل بها، وهو مكان ظل كما كان يستخدم كمخزن لأعلاف المواشي ومبيت بعض منها، وقبيل هذا الحدث كانت لحظات هادئة في أحضان ليلة دافئة بالسعادة والأم تسامر ابنها في حبور على فراش من أكداس العلف وقبل تغفي أعينهما اذا بمن يدفع الباب الخارجي بقوة وانطلقت أصوات رصاص غاشمة من أحد الملثمين اللذين لاذا فورا بالفرار ثم سمع بعدها أصوات قرع قوي ودبك شديد خارج الزريبة مع ركض وزعيق حول المعزل لبرهة قبل أن تبدأ صرخات استنجاد بطلب المساعدة للقبض على سارق أعراض الشرفاء؟

كان الطفل أحمد أثناء ذلك قد تأكد بأن صوت أمه لن يرد عليه وللأبد فركضت به أقدامه الصغيرة بعينين تحجرت فيهما الدموع لهول الصدمة وهام عدوا في

ذهوله ورعبه يشق الظلمة الحالكة قفزا على صخور الجبال التي اختفت كل عوائق فيها ولم تعد موجودة أو مخيفة بأكثر مما رأى وعاش فيه قبل دقائق رهيبة، وبأعجوبة وبعد ركضه هائما لساعات طويلة من الليل أوصلته العناية الإلهية حتى وجد نفسه في مزرعة جده الصغيرة ليسقط على أرضها مغشا عليه ونباح الكلاب وهياجها حوله جلب اليه المساعدة.

بقى الطفل أحمد لأشهر في بيت جده في حالة من الشلل وأراد الله له الشفاء وتحسنت حالته بزوال تيبس جسمه عدا تلك البقعة التي ظلت متحجرة كمعلم على وجهه وكأنها ابتسامة غامضة ، مع أنها لا تتناسب مع ما فقده ولا ما حمل في تلك الأحداث ولا مع ما آلت اليه حالته ولا مع ما سيلقاه من أنواع المعاناة، فما أستجد من الأمور لاحقا في محيط القرية وما حولها من القرى بعد مقتل أمه لم يشعر بها بسبب مرضه الطويل، مع أن وجه الأرض والأجواء في القرية أصبحت ملتهبة وممتلئة بالعداء وبالمشاحنات والتي سرعان ما تتحول الى مواجهات جماعية طاحنة وأحينا يحدث الاقتتال في أماكن محدودة ومتفرقة، وكثر في الأنحاء ما يدور من مؤامرات الانتقام الخفية. ولكن الجد نجح بعزل حفيده وإبعاده عنها حتى بعد شفائه وحتى تأكد ووثق من عدم تأثر عقل الطفل وشفاء كامل جسمه من كل آثار المرض، ولمح بعدها شدة ذكاء حفيده الصغير وقوة شخصيته رغم ما مر به من البلاء والأمراض، وعجب من تفتح ذهنه المفاجئ ومن ازدياد توسع مداركه بقوة فطنته ونباهته ولاحظ تفجره بالطموح ورغبته ببلوغ سن الرجولة مبكرا، فقرر أن يبعده مؤقتا عن هذه الأجواء الكئيبة

وما فيها من موجهات الثأر الدامية والمواقف المؤلمة بأحزانها وكل الأجواء المشحونة باللغط حتى يشتد عوده ويمتلئ بالقوة والصلابة.

أستعان سرا بتاجر ماشية بأن يأخذه طفله سرا في سفرة قادمة الى البلدة الكبيرة المسماة بالطائف، لتعتني به أحد العوائل الفاضلة هناك ويكتسب خلالها العلم والمعارف أو ملازمة أحد التجار أو أصحاب المهن التي يمكن أن يبرع فيها، وكأنت هذه هي أكبر أحلام أهل القرى النائية والفقيرة في ذلك الزمان للمحافظة على حياة أطفالهم من الجوع ولتعلم مهنة لكسب العيش مع ما تيسر من علوم الدين والقرآن، وفي الموعد المتفق عليه أخذ راعي الغنم والمتاجر بها الطفل خفية من بيت جده وسار به مع الأغنام التي يعزم على بيعها في المدينة كما تمكن بوصوله من وضعه في عهدة أحد معارفه الموثوقين وهو صاحب تجارة بالخضار يدعى حمزة الخضري، ولسوء حظ الصبي أن هذا الخضري توفي بعد أشهر، ومنها قرر أن يترك بيت الخضري ويبدأ حياة مستقلة وخياره الكفاح ليس إلا، وعليه أن يتعلم ويعلم كل شيء عن هذه الحياة ومتطلباتها ليعيشها ويعيش في سعادة وأمن وسلام، أي أنه في حقيقة وضعه لا يعتبر من فئة المشردين أو عيال الشوارع بل ممن يطلق عليهم الشغيلة والكسيبة وهم كل أنواع الأطفال الكادحين باستقلالية ويطلق عليهم اسم الصبيان وهم تحت مظلة التجار والمعلمين في جميع الحرف المنوعة.

خلال أيام وليالي حياته الجديدة واجه الطفل أحمد ابو عريكة الجوع والمبيت في العراء كطفل مشرد حقيقي ينام في ما يجده من ملاذ بين صناديق وأكياس

البضائع على أبواب المحلات، وفي الشتاء يدفن نفسه في حفر في أكوام الرمل المعدة للبناء بحثا عن الدفء حتى قرت عيناه بالنوم باكتشافه الأمان والسكينة بالنوم في مسجد العباس أو مسجد الهادي، ولكنه يتميز بأنه مع فجر كل يوم لابد له من التواجه مع أنواع جديدة من المعاناة في صراع متصل مع المنافسين له في تنزيل وحمل الخضار ومع أصحاب العمل وجميعها صراعات من أجل الحصول على قوت يومه، وفرضت عليه أن يرى ويتعامل مع العديد من الصور البشرية والمكونات المختلفة وكل منها يتطلب تعاملا خاصا وبكل نوعية، وجميع هذه التجارب تتراكم وتختزن في ذاكرته وتؤثر فيه يوميا وبعمق وهو في بداية حياته، وكثير منها تسبب له بعظيم الحزن والألم وهي امتداد مشابه لحياة التشرد التي بدأ يسير فيها يتيما فاقدا للأب والأم ولكل معنى لتلاحم العائلة ولدفء البيت وتعاون الجماعة.

أصبحت الطرق أمامه مظلمة بلا نهايات، وأعتاد على كل ظلمة وأصبح أي ظلم وظالم وأي مصير لا يخيفه، بل يجد دوما ما يملأ به هذه الكراهية الشديدة لمن يقوم بها أو يمارس أي أشكال الاضطهاد والاحتقار للآخرين أو سلب حقوقهم أو ما يتسبب لهم بالأذى فيتحول هذا الكره المختزن لديه الى محبة؟

نعم. ولكن للانتقام من فاعليها ومرتكبيها، وهي حالة تظهر وتتجدد عند كل رؤية أو تكرار لحدوث أي ظلم له أو لغيره، فقد أصبح يجد في نفسه أنه لم يعد عاجزا عن دفع الخطر ولن يشعر مجددا بالخوف لصغر سنه وضعف جسمه وهو يشعر في أعماقه بأنه يملك أسلحة ردع وانتقام قوية وفتاكة وبداخله ترسانة

مقاومة وهجوم من الشجاعة والذكاء، وسعة تفوق في الحيلة والدهاء وجميعها مسخرة فقط لأخذ الحق ودفع الباطل عن نفسه، كما يملك معها أيضا طاقات كبيرة من قوة الصبر والتحمل والمرونة حتى يصل الى مبتغاه وهدفه بسلام تام ثم يحشو بها لسانه ذخيرة مذلة ومهينة لكل متجبر وجبروت حين يرسل نحوه أخطر المقذوفات –المنتزعة منه– للانتقام.

كان يظل مستيقظا كالذئب ولن يشعر بأي ارتياح إلا متى رد المظلمة وأذاق أصحاب الظلم كأس الألم وأخرسهم بأحاسيس العار، فهي معارك حقيقية وفيها نصر حقيقي حتى وان كانت ذخيرته وأسلحته مجرد كلام وتعليقات وتهكم ونوادر ممتلئة بالسخرية فتأثيرها شديد الوقع على الشخص المعني بها بإصابات مباشرة فتاكة وملجمة تعطب كل جبروته بالإهانة المريعة التي تؤذيه بعنف وتملؤه بالرعب دون أن يجدوا على هذا الطفل ما يلام عليه من خطأ بفضل ذكائه بل يجد في السامعين التشجيع وكل الإعجاب والتأييد ومنهم من يحملون في القلوب أيضا الكراهية لهم والغضب عليهم بسبب جبروتهم وتعاملهم المتعالي، فمتعتهم أن يروا هؤلاء القساة يديرون وجوههم ببلاهة وفي حيرة أو محمرة فمن الخجل وحينا في صمت العاجز، وتدهشهم مشاهدة نظرات بعض المعلمين تزوغ أو يروغون بأجسامهم خوفا من سماع المزيد من المفاجآت المتوقعة من لسان هذا الطفل الجريء وقد علموا تماما بما يملك من أسلحة ومقدرة على التسبب لهم بما هو أفدح من كلمة الضياع.

وما يثير إعجابهم دون تساؤل هو رؤية أغلب ردود هؤلاء الجبابرة تتحول الى مجاراته في السخرية وكأنهم يتجاوزون عنه تعففا وعطفا عليه لصغره وضعفه والحقيقة أنهم يدركون عدم جرأتهم على مواجهته أو التعرض له، والتي حتما ستكلفهم الكثير، ولم يتوصلوا الى الفهم بأن هذه المخاوف مزروعة وهي الهدف والمراد الذي خطط له الداهية الصغير، وهي أسلحة ما يطلقها علهم في رسائل صوتية تضمنت شفرات وتلميحات تحذيرية تعرض لهم ما لديه من قدرة تسبب لهم الكثير من الضرر وهم يجدون أوضحها بالفعل كرموز تحمل المطلوب منهم تنفيذه وغالبا بالكف عن نوع من الظلم أو تحذرهم من الاستمرار بممارسته، وتظل نقاط ضعفهم هذه سيفا مسلطا على رقابهم متى لم يتخلوا عن ظلمهم أو عن أي محاولة لإيذائه هو في يوم ما.

والأكثر غرابة أن يشاهد على وجوه بعضهم علامات التأسف والندم وكأنهم يلومون أنفسهم على توريط أنفسهم مع ذاك الطفل ومنحه الفرص السهلة للقضاء عليهم، وآخرون يلوح فيها الغضب والحقد ولكنه باليأس يتفجر ضحكا فاترا لشعورهم بالحمق وبالخيبة في أعماق أنفسهم لأنهم هم من جنوا على أنفسهم بغبائهم، فلا يجد العقلاء منهم بعدها أي مبرر لحمل أي ضغينة على هذا الولد الذكي وعلى محاولاته العبقرية للدفاع عن نفسه وهي قناعة سامية أو عادلة.

ويحرجني أن أستدل على أمثلة لهذه المشاعر في شخصي وأثرها على نفسي! حين أتذكر حدثا طفيفا سبق ووقعت فيه يوما بعد توثق معرفتي به، ويلاحظ

الشبه فيما تعرضت له الى حد بعيد باستراتيجيته الرهيبة في صنع المقالب الكبيرة وان كانت مخففة بحجم ضعفي وسخافتي، ولكن يظهر فيها دقة التشابه في التقنية والنتيجة في التأثير على نفسي بما يتطابق مع ضحاياه الكبيرة من حيث الأسلوب والنتائج وهي مطابقة للمسالك والمنتهى وكما يرسمها ابن آوى أو أبو عريكة الماكر، فقد وجدت نفسي أخيرا وبعد الحدث لا أستطيع الجزم أبدا بأنه هو من دبر لي الأمر كما لم أجزم بحدوثه مصادفة لإيماني بالإحساس الآخر المعاكس ببراءته منها، وفي النهاية وجدت نفسي مجبرا على الاعتراف بأني أنا من أختار الدخول وبأقدامي في تلك المصيدة المفتوحة بفرط غبائي، وتلك ربما هي نفس النتيجة الختامية التي يتوصل اليها ضحاياه دوما إذ يتحتم عليهم أن يسخروا من أنفسهم وبعد أن يهيئهم مسبقا بقذائفه الصوتية!

فأنا أجد نفسي بصريح العبارة أنه كان بيدي النفاذ منها

حتى وان كانت شرك ومقصود ولكن لزمني حينها أن أحسن التصرف، وهذا يتطلب فقط تفعيل بسيط لعمل الدماغ، والأعجب أن هذه القدرة تختفي ولا يجدها من أصبح في دوامة محيط وفي قلب المدى المؤثر كمستهدف من قبل هذا الداهية، حيث وفجأة لا يجد أي فرص للنجاح بتفعيل الدماغ وفرصته أضحت ضئيلة جدا وواهية أو منعدمة، وفي يقيني التام أنه يملك من الذكاء ما يجعله قادرا على التوقع ومسبقا بكل هذا وعلى نوعية تصرف هذا المستهدف ومعرفة خياراته المتوقعة وتنبع عن تفهمه البعيد لإمكانيات ومخزون غبائه وحدد كيف سيتخذ قراراته، وهذه القدرة بت أؤمن بأنها لم تكن تنقصه أبدا، وأبدا!

برغم أنه ظل محل اتهام وصل للإدانة في نظري وفي نظر أمي وأبي وأدين فعلا بأنه ولد سيء الأخلاق ولا يختلف عن عيال الشوارع إلا أني وجدت نفسي شاهد عين على معاناته القاسية مما قذفناه به من تهم هو بريء منها؟ وأن المتهم الحقيقي هو أنا وأنه كان يسامحني لغبائي بأن أورطه فيما ورطت نفسي به! فأنا من كان يلح عليه وتماما–كغيري من ضحاياه–على أن يفتح لي باب المصيدة كي أدخل فيها!

وان كانت هناك احتمالات قليلة لم اقتنع بها بأنه لم يكن يتوقع بأني سأفسد الأمر برعونتي وأني سأصل بوضعي الى تلك الدرجة، ولكن يقيني بأن ذكاءه الذي سبق أكبر المعلمين سنا وبعشرات السنين أجد هذه الفكرة تفسد كل قناعتي.

ورغم مشاهد تأثيرات ندمه وحزنه الشديد على ما حدث لي أعود لأرى تجريمنا له خطيئة من خلال رؤيتي لتألمه بعينين دامعة لأول مرة وكان الاعتقاد بأن مقلتيه جافة أبدا ولن تسقط دمعة واحدة، لأنهما ناضبتان وتحجرتا مع تحجر ابتسامته، فأجد تلك الدموع شفيعة له ويتوجب أن أغسل عن قلبي كل ما لوثه من غضب وشكوك ويتحول زخمها لإضافة أقوى مشاعر المحبة له من جديدة، لأني أقسم بأن ما رأيت فيه من مشاعر ودموع لم ينلها وقطعا أي أحد من ضحاياه وهم كثر، ووجدت أن من تشفع له هو أيضا هي نفسي التي حملتني الإدانة الكاملة لي وحكمت علي أني وبغبائي من تسبب بالضر!

لا أعرف لماذا بدأت بشرح الأعذار والمبررات قبل سرد هذه الحكاية البسيطة ولكن يبدو أن أثرها عميق التبعات حقا، فقد حدث يوما بعد جلوسنا المعتاد عند الغروب وكنت قد تعبت من لعب الكورة وقبل هذا كان صديقي أثناء اللعب وبمفرده يشكل جمهورا خاصا أكبر من أي جماهير حقيقية غفيرة، لأنه كان يشجعني ويهتف لي أنا فقط ويكثر من قذف الشتائم والتعليقات الساخرة بكل من يعترض لي أو من يعيق تقدمي والويل لمن تجرأ على إسقاطي وأفسد لي هجمة لصنع هدف، ومع ذلك كان الجميع مسرورين بهذا المعلق الجريء بالتعليق الساخن بالنفاق المتواصل والمسلي، جلست بجواره لأستريح ولاحظت مع قدومي نحوه بأنه أخفي شيئا ما قاصدا منع رؤيتي له، إذ قام بإدخاله بسرعة في فتحة الجيب الجانبية والتي تفضي إلى المخابئ الداخلية السرية، فأخذت ألح عليه مازحا أن يخرج ما أخفاه من ثروة نقود أو مسروقات وان يشتري لنا شيئا من الحلوى، وما زلت به على ذلك حتى ضاق بي ووافق أخيرا على أن يطلعني عليه ولكن بحرص شديد لتحاشي أعين الآخرين، كما أشترط أن أتكتم على ما سأشاهده، فانتحينا إلى عتبة بيت الأستاذ نوح وأخرج قرطاسا كروية بحجم ليمونة صغيرة ملفوفة بعناية فائقة، وراح يفرد طياتها بحذر بينما عيناه ترصدان أي نظرات فضولية أو متلصصة، فإذا بالثروة الخطرة مجرد مسحوق ذا صفرة داكنة وربما أقرب لمسحوق الزعفران! وهتفت وأنا أدعي الدهشة:

– الله! ايش هذا؟ ذهب؟

كنوز ذهبية؟

ضحك ساخرا مع توتر بسبب هتافي الفاضح وسارع يخفي الثروة بين فخذيه ونظراته تمسح النطاق المحيط وحين أطمأن بالأمان همس لي في ضيق:

- لا يا أهبل هذا " نشوق"!

قالها وهو يكرر التلفت يمينة ويسرة ليشعرني بخطورة الأمر، وعرفت لاحقا بأن "النشوق أو الشمّة" هو عبارة عن مسحوق من التبغ يخلط مع مواد أخرى ويوضع في الفم بين لثة الأسنان والشفة السفلى ولا تبتلع عصارته بل تُبصق، ويستعمله البعض للكيف كما في بعض البلدان الأخرى وحينها لم يكن التدخين مسموحا ولا معروفا بكثرة بين أغلب الناس في بلدتنا، ولأزيل جهلي بهذا الشيء رحت أكثر من الأسئلة بتحمّس:

- نشوق؟ ايش نشوق؟ يتأكل؟

لينظر الي بسخرية وفي ترفع عن جهلي بهذه الأمور:

- انت بس كل شيء للبطن! يا خي فيه أشياء للصدر
  وأشياء للرِّجول وأشياء لليدين، وهذا يا سِيدي!
  للرأس! فهمت؟
  سامع يا للي ما في راسك مخ ..

تجاهلت رده وعدت أسأل لإثبات فهمي فاضحا عمق جهلي بذلك:

- كيف؟ للراس؟ يعني دواء؟ أكيد انه صباغ زي الحِنَّاء؟ صح؟ حناء؟

وبالفعل نجحت بإقناعه بذلك الجهل فحاول وبإسهاب أن يشرح لي وبتفاصيل ما يزيل به هذا الجهل:

- شوف! بلا بلاهة! لا توجع دماغي! هذا مجاز! يعني(مزاج)! تحطّه في الفم كذا ولا تبلعه وبعدين تتفّه من فمّك وتلاقيك انبسطت وشفت منارات "مصر" ، زيّ ما أشوفها ذا الحين!

أبهرتني العبارة الأخيرة وشدتني النتيجة التي شعرت بغرابتها وبمتعتها في أذني وشدني فضول لذلك المسحوق الساحر القادر الذهاب بي أو يحضر الى زقاقنا مملكة مصر العجيبة بمناراتها التي ترددها الألسن وتصفها بما يحلق بالخيال كأعظم العجائب، فقررت أن أقلع وفورا على ذلك البساط المسحور أو السفينة الذهبية الطائرة إلى مصر المعجزات:

- طيب حطّ لي شويه! أبغى أشوف منارات مصر

استغربت أن ظهر عليه الارتباك وأغضبني أن طعن مشاعري الرجولية الطموحة وأظهر لي اعتراضه بما يحسسني بصغر سني وهو يقول:

- لا، لا! هذا ما يصلح للصغار زيك أبدا، واللي ما تعرف له لا تتلقف عليه!

كأن الأمر وصل إلى بالإهانة وهز تحتي عروش الرجولة والكرامة وهو يدينني بالطفولة وبالضعف، ولذا أظهرت العناد وبقوة التهديد لنفي الوصمة بإصراري على تحقق طلبي:

- طيب! أنا حلفت لازم تعطيني! هذا إذا تبغانا نصير أصحاب فلازم تذوقني!

صمَت ينظر الى الأرض طويلا ويبدو أنه يقلب الأمور وأنا مستمر في توجيه نظراتي الصارمة نحوه وشفتاي مضمومة بغضب منتظرا رده على طلبي حتى أزيل عار الطفولة، ويبدو أني صعبت عليه الأمور حين رفعت سقف المطالبة ووصل الأمر بإعلاني التهديد بقطع العلاقات!

أخير هز رأسه مبتسما والحقيقة كان مستسلما لوقوع البلية وشعرت عندها بأنه رضخ لتهديدي، ووضع في فمي كمية صغيرة منه وأنا أطالب بالأكثر وهو يكرر تحذيره لي من بعدم ابتلاع المستحلب ودخوله إلى جوفي حتى لا أصاب بالدوار والغثيان وعندها قد أمرض بشدة.

ما أن وضع الكمية في فمي ولعدم خبرتي لم اتركه تحت شفتي بل أنتشر في جميع فمي بملوحة مقززة ونكهة كريهة، فقررت أن أبصقه بسرعة ولكن! خطر

لي أن أتندر قليلا، فقفزت لأقف في وسط الطريق ورحت أدور حول نفسي وأمثل بدوراني هذا أني أحلق في السماء ووصلت الى مشارف القاهرة وأصبحت أشاهد "منارات مصر" المشهورة!

رحت أحوم في الشارع وأنا أمد ذراعيّ على الجانبين محلقا كالطائرة، وكانت حركة السيارات نادرة جدا لقلتها ولا تزور حارتنا بل يستحيل دخولها وسيرها عبر الأزقة الضيقة الملتوية والمحتكرة لتحركات الأحصنة والبغال والحمير وعربات الكارو التي تجرها، وما زالت حركتها قائمة أو في طريقها لإنهاء يوم العمل الشاق، ولكن ولسوء حظي تعثرت بالصدفة وربما أختل توازني بتأثير تلك المادة فأندلق جميع ما بفمي إلى جوفي، أي ابتلعت المحظور بالمحذور، فأصبت بالهلع ولم اعرف كيف أخرج ما دخل ببطني، وما هي إلا لحظات حتى بدأت الدنيا تدور حقا من حولي ومعها صديقي أحمد وكل من في الزقاق، وبالفعل رأيت الكثير من المنارات ولكنها مقلوبة مع البيوت وأصبحت تدور كفقاعات الصابون في السماء مع ما يشبه القباب والقلاع وحولها سُحب تخترقها الأمواج ومعها كل شيء حولي يدور، وكل من جاء من الأولاد يستطلع ظن بالأمر دعابة وذهب هازئا وأنا أستغيث بهم صارخا بكل الصدق مع الخوف وإحساسي بالدوار وبالرعب وأنا أرى تقلب كل شيء يحيط بي وأخذ يلتف من حولي بمختلف السرعات والألوان الصفراء والحمراء وزرقاء لتمتزج مع بقية ألوان طيف معروفة وجديدة، وبينما الجميع يضحك على تمثيلي السخيف حتى

تمكن مني الشعور بالغثيان وحينها أخذت أحشائي تتمعج وتفرغ ما بداخلها ويزداد تمرغي غير الواعي على الأرض عندها ظهرت لهم جدية الموقف.

كان صديقي ابن الجبال قد أنطلق يستدعي أخي الأكبر عبد الرحمن الذي يكبرني مباشرة، وقد أفهمه بحقيقة ما تناولت، فأحسست بمن يرفعني عن الأرض ويأخذني مسنودا ثم محمولا إلى المنزل. ولحسن الحظ أو لسوئه أن كان والدي متواجدا في المنزل في تلك الساعة، وأعلمه أخي بالتفاصيل ولم يكن أمر العقاب واللوم مطروحا أو ممكنا لأن حالتي بدت مقلقة، فما تناولته شيئا غير معروف بين أغلب عامة الناس ولا نتائجه، حتى التدخين والسجائر أيضا لم يكن يعرف عنها الكثير سوى ما يسمى بشرب "العظم" وهو نوع من الغليون المصنع من قصبة نحيلة من العظام ويثبت على طرف منها مبسم معدني والطرف الآخر تجويف لوضع خليط التبغ الذي ينمو طبيعيا في جبال الطايف العالية ويستخدمه أفراد من جماعات محدودة من الأعراب والمزارعين ونرى أغلبهم من كبار السن وقد يكون هناك من يدخن سجائر ملفوفة بالورق وباليد قبل توفر الدخان المهرب من الحدود وكلها محاربة من الحكومة وكثير من الناس، فمن يستخدمها قلة وربما في الخفاء، وأنا لم أكن أعرف شيئا عن التدخين في تلك الفترة وذلك العمر.

كان الظلام قد خيم تماما حين حملني والدي على كتفه

وانطلق بي مسرعا عبر الأزقة لا أذكر أو أعرف إن كان حينها وجدت مستشفيات في البلدة ولكن المعروف في الحارة الشرقية وجود "مركز إسعاف

للهلال الأحمر" يقدم طرقا جديدة لعلاج الجروح والكسور وأدوية تختلف عن طب الأعشاب ومحترفيها، ويقع على أطراف الحارة بين الحارة الشرقية وحارة البخارية وحارات وسط البلد ليقوم بدوره كموقع متوسط في بلدة الطائف، وأكاد أتذكر بما قام به المسعفون بحقن جوفي بكميات كبيرة من الماء الكثير المملح لأستفرغ أيضا جميع ما في جوفي، وحين أتموا ما يلزم تركوني تحت الملاحظة لوقت قبل أن يسمحوا لأبي بأخذي إلى البيت.

لم يتحدث والدي معي أبدا حول الموضوع طول الطريق عدا السؤال المتكرر إن كنت أشعر بأي آلام أو دوار وهل أنا بصحة جيدة حتى بعد وصولنا، وربما نصحه الطبيب بذلك ولكن ما أعانيه كان أشد من الألم، وفيه آلام مركبة من الرعب والخجل وشدة الحرج من فعلتي بالرغم من حالة الإعياء وإحساسي بالخدر والإجهاد المصحوبة برغبة قوية للنوم، وتركوني لأنام أو بالأصح وصلت نائما ولم اذهب في الغد إلى المدرسة.

عند الضحى أيقظتني أمي لأجد بجانبي إفطارا منوعا وشهيا، وظلت صامتة لتتركني آكل بسلام، ولشدة إحساسي بالجوع فقد كنت أفترس الأكل وأخاطبه وأخاطب نفسي وبصوت تمثيلي مسموع في محاولات لإضحاكها وعلِّي أكسب بهذا عطفها ورضاها:

- إن الطعام شهي ولذيذ! لازم آكله،

يعني أنا رايح أضرب فيه حتى أشبع وأكيد

بعدها رايح يجي "أبويا" عشان .. يأكلني ضرب

لكن بيلقاني شبعان من ضرب الأكل.. وساعتها

يقول: لا، خلاص!

كفاية، الولد شبعان من ضرب الأكل!

لم أتمكن من اضحاك أمي فأظهرت لها الحزن وأنا أتمتم مع أفكاري:

- لكن أبوي ما يجي إلا الظهر! وساعتها أكون

صرت جوعان!

وهنا بالزبط! لازم يشبعني ضرب، وبكذا رايح

أشبع من الضرب، وبجَدّ!

وكانت أمي تحاول إظهار غضبها واستياءها منّي لهذا ظلت تبذل جهدا لإخفاء أو مقاومة رغبة الضحك وكي تسيطر عليها تدير وجهها إلى نواحي أخري، وما أن فرغت من الأكل حتى صوِّبت نحوي نظرات حادة وبكل الجدية فيما تريد قوله لتأنيبي ولكنها تفشل في الأمر وتعود لتخفي وجهها بيدها أو متصنعة عمل ما أو تبحث عن شيء ما في اتجاه آخر، فقمت باستغلال الفرصة من طرفي بأن أسبقها وأهون من الأمر باعترافي بالخطأ لعل وعسى:

- أكيد زعلانة مني يا أمي، كان لازم إني ما ألمس

هذي الأشياء الوسخة بيدي ..

كنت أحاول بهذا استمالتها إلى صفي وأن أحظى بحمايتها من أبي:

- أنا أعرفك يا أمي الحبيبة والحنونة بتسامحيني

لكن الله يخلّيكي .. أنا ميت من الخوف من أبوي!

وأنا تبت! ووالله ما عاد أسوّي أي غلط بعدها، بس

ساعديني هذي المرة.

مع أنها قامت بتقريعي ولومي وبتوجيه النصائح وتحذيري من أولاد الشوارع فهي لم تستطع طويلا أن تنتصر على تسلط نوبات الضحك والتي أجد فيها فرصا لتكرار طلب الحماية من عقوبة أبي أو وجبة الضرب المتوقعة عند وصوله، إلا أنها وضعت شرطا قاسيا جدا، ولم أجد أمامي إلا الانصياع بقبوله أولا للحصول على أمنيتي بالسلامة، وكان شرطها في الحقيقة أكثر ألماً في نفسي من الجلد بعد أن ربطته بترك مصاحبة ذلك الصديق والابتعاد عنه نهائيا، وأذعنت كي لا أخسر محبة أمي وحمايتها، وأعطيتها عهدا وأنا أتعذب في أعماقي، وعندها أعطتني هي بدورها الوعد بحمايتي فقفزت من الفرح أقبّلها وأطوف أتقلب بالغرفة بحركات السَّعادين أو البهلوان ووجدَتها أمي فرصة لإفراغ كل مختزن من الضحك المكبوت بإظهار دهشتها مع كل حركة أقوم بها، ثم توجهت بخبث لا إرادي إلى "الطاقة" أو النافذة الكبيرة التي تتوسط الغرفة والمقسمة إلى أربعة نوافذ صغيرة يمكن فتح كل منها على حده أو النظر من خلال فرجة الألواح العرضية التي تُفتَح بتحريكها للأعلى أو تُغلق للرؤية من داخل الغرفة دون أن يرى من الخارج كما تسمح أيضا بدخول الهواء بينما النافذة أو أقسامها جميعا

مغلقة، وكان نصفها العلوي مفتوحا فأظهرت رأسي لأنظر إلى دكان عم "حسن جبرة " في أسفل المنزل المواجه لمنزلنا على الناصية الأخرى لنهاية "زقاق الفرن" الذي يعترضه صف البيوت الواقعة على الجانب الآخر من الشارع الكبير، ثم حولت نظري جنوبا في عمق زقاق الفران حيث ميدان اللعب المعتاد وكان لأول وهلة خاليا هذا الصباح إلا من عم "أبو شاكر" مصلّح " دوافير القاز"، ورفعت صوتي أناديه باسمه لأحييه فألتفت بسرعة فرحا نحو الزبون المنادي ولما لوحت له بالسلام فقط هز رأسه وواصل المسير، وظهر من البعد في أسفل الزقاق اثنان من باعة "الفرّقْنا" ويحمل كل منهم صرة ضخمة مليئة بأنواع الأقمشة النسائية وهما يطلقان نداءهما الموسيقي المعروف للنساء تماما وحين التقيا في منتصف مسافة الزقاق اتخذا اتجاهين متعاكسين في أزقة فرعية ولكن أكثر المتحركين في الشارع في رحلات مكوكية سريعة في الأزقة المتفرعة ومن أبواب البيوت على جانبي الزقاق هي للأعداد الراكضة من "السقائين" وهم يحملون الماء في "الزفة" وهي من صفيحتي سمن كبيرتان تتدليان بسلاسل من طرفي عصا قوية من الخيزران تحمل على الأكتاف بينما يرددون أهازيج يمنية للتحفيز وتخفيف مشقة العمل وهم ينطلقون بين الأزقة الجانبية على امتداد زقاق الفرن الطويل وهو الأكثر اتساعا من الفروع التي تصبح من الصغر وشدة ضيق بعضها في صعوبة تجاوز أي شخصين دون التصاق أي منهما على أحد الجوانب، وكنت أستمتع بهذه المشاهد ونسيت فيها لدقائق القادم المحتم من عقاب والدي فامتعضت من العودة السريعة للفكرة فأدرت وجهي للأمام

لأنظر في أقاصي الشارع الكبير المقابل للنافذة للتأكد من قدوم هذا الحسم فإذا برجفة مفاجئة عنيفة بين أضلعي وأنا أرى رأسا صغيرة أعرفها تطل وتختفي من زاوية في أقرب زقاق نافذ على الجانب الأيمن من الشارع الكبير والذي يمكن رؤية زاويتيَ مدخله من مكاني وبوضوح ، فما أن رأيته حتى أخذت ابتلع ريقي بصعوبة لجفاف أصاب حلقي بتيبس مفاجئ وأجج في داخلي أحاسيس محرقة جذورها لم تزل مؤلمة ومتناقضة ومبهمة في وضوحها وغموضها في آن، حتى لم أعد أميز إن كانت تلك المشاهدة تغضبني أو تفرحني ولكنها إجمالا تخيفني وتسببت لي بالقلق والإرباك وأنا أرى رأس "أحمد" فعلا يرقبني بإطلالات متخفية ومنتظمة ولا أعرف لماذا أخفضت رأسي بسرعة لأدس نفسي ملتفتا إلى حيث تجلس أمي بنظرة حذرة علها لم تلحظ شيئا، وان غلبني شعور بأنها من مكانها تراه بعينيها أو تعلم بوجوده، فأسرعت بالعودة قافزا إلى جوارها لأتخلص من قلقي وأنا أثرثر بالكلام لأخفي ما أفكر فيه، ولكني بهذا كشفت نفسي وساورها الشكّ حقا من هذا التصرف والانقلاب الحاد في مزاجي من الحبور إلى توتر وثرثرة غريبة فلم يفتها أن تلمح مازحة:

– اش فيك؟ صرت ما أنت على بعضك؟

فقلت في تلعثم وأنا أبتلع ريقي بحثا عن الإجابة والعبارات المناسبة:

– بصراحة! أنا خايف من أبويا، واش بيسوّي مع

أحمد؟ الذنب ما هو ذنبه، وأنا بصراحة بلعت الدواء

بالغلط، وخايف يحبسه والا ..

فقاطعتني بحزم وبغضب:

– خليه يحبسه! ولد خربان! ليش يجيب هذا الوسخ ويأكّلك منه؟

أدركت عندها أن تلك العلاقة من المستحيل أن تعود، فاستسلمت للأمر الواقع، وبدأت أشجع الشعور بالغضب من أحمد بالقناعة بأنه المتسبب في كل ما حدث لي بإحضاره تلك المادة القذرة مع استعماله لها، باعتباره صديق خاص وكان من المفترض أن يتخلص من سلوك عيال الشوارع هذا، وثانيا لأنه ورطني وفضح غبائي لنفسي ووصمت بمسلك مشين، فلو لم يجلبها لما حدثت كل تلك الأمور والتعقيدات وتسببت بغضب والديّ وسخرية إخوتي وعيال الحارة وبالتالي تقويض صداقتنا، فمن هذه الناحية اعتبرته المذنب الأكبر لأساعد نفسي على التخلص من الأضرار والتبعات ومع هذا ما زلت بين حين وآخر أقفز مستغلا أي فرصة للنظر من بين فتحات "الطاقة" فأراه في نفس المكان وعلى نفس الوتيرة، وما أن اقتربت الظهيرة ومعها موعد وصول والدي حتى أخذت تتقلب الأجواء أعماقي وتضطرب بتحركاتها مكونة نوبات لولبية النمو من الأعاصير العنيفة محدثة تقلصات كهربية غريبة كالقشعريرة في المواقع المحتمل نزول العقال أو العصا عليها وعلى ما جاورها من أعضائي فازدادت تحركاتي العصبية العشوائية بالتحركات وتسارع بغير هدف في أرجاء البيت ولعلي أرجو منها أن تتساقط عني أحمال الأوزار أثناء هذه الحركة، ولحظة أن

بلغت الدهليز قرب الباب الخارجي فوجئت به يقرع، فجمدت في مكاني كاتما أنفاسي من الخوف، ولكن وصول أمي بسرعة أنقذني من الاختناق رعبا، إذ رأتني متصلبا على آخر وضع حركي حدث مع طرقة الباب الأولى، فراحت تهز رأسها مبتسمة برثاء، ولساني أصبح عاجزا عن النطق من الخوف الشامل حتى لا يسمعه والدي، فجعلها منظري المزر تنحرف نحوي هامسة بأن أسرع بفتح الباب له وتشجعني بأن أقوم بتوصياتها إذا أردت السلامة فعلا وذلك بإظهار البشاشة والإقرار بالخطأ والمبادرة بالتأسف المنتهي بالاعتذار كوسيلة وحيدة لمنع العقاب، وهي تظن أنها بذلك كانت تشجعني أما بالنسبة لي فظنوني أنها تدفع بي للانتحار دهسا تحت أقدام أبي وكأمر واقع، لعلمي بأن وصاياها ستختفي عني وسيتبخر مني كل ما قالته بمجرد دخوله بأول أقدامه وعندها لن تكون لدي قواعد وبروتوكولات، فكل شيء سينطلق لا إراديا، وأفكاري هذه زادت من تخشبي ومن يأسها مني ففتحت له الباب! لم أصدق عيني ولا أذني وهو يدخل مبتسما منشرح الصدر وأسمعه يلقي علينا بالسلام ويستفسر مني عن صحتي إن كنت أشعر بتحسن! وبدا لي أنه نسي ما حدث! فتشجعت لاستغلال الفرصة وأن أسرع إليه بالخروج من مكمني خلف أمي وأستقبله وأقبل رأسه، فلا يتبقى بعدها إلا أن أتذكر وأطبق وصايا أمي، وفجأة دون سبب ظاهر تبخر هذا الإحساس فورا وتطايرت عرى تماسكي وشجاعتي ولم يتبقى معي إلا التصرف اللاإرادي والغير متوقع، إذ فكرت بالهرب والعودة بسرعة للاستجارة بأمي، فلم أجد لدي أي تخطيط لكسب عطفه للنجاة من

العقوبة المتوقعة، وأنا لم أره بعد الليلة المشؤمة ولكني تذكرت قول والدتي بأنه ظل طوال تلك الليلة إلى جواري، يتحسس رأسي ويقبلني حتى أنه نام في مكانه بقرب فراشي بجانبي حتى الصباح، وانه طلب منها عدم إيقاظي للمدرسة وسيعرج على مديرها في طريقه ويبلغهم، ومن هذا داخلت مشاعري نسمة باردة زادت من ثباتي واسترجعت فيها شتاتي وبعض شجاعتي بعد خيانتهم وتخليهم عني لأندفع نحوه وأقوم بباقي الخطوات بسلاسة، حتى تجاوزت التوقع باليقين في نجاتي من الضرب، وهو يرد على تحياتي ويكرر السؤال عن حالتي مبتسما ولكن! في ختام كل هذا طلب مني اللحاق به إلى غرفة "المجلس" ؟

وأنا من يعلم تماما ما معنى هذه الدعوة الخاصة! وما هي معطيات هذه المفردة وما وراءها وان كنت لم أشعر بعد بالعقوبات والتبعات لانعقاد المجلس الطارئ ولكن على أي حال هو المكان المعتاد والمناسب لجلسات متعددة ومطولة للتوصية بالعقوبات وينتهي غالبا مجلس والدي بالتنفيذ الفوري للعقوبات، لهذا أخذت بالتقهقر متراجعا والتشبث بقوة بثوب أمي لأجرَّها معي للدخول وكنت أبكي مقدما وهي تضحك وتدفع بي أمامها فألتف باكيا أدفعها أمامي وكل خلية تستنجد بها :

انه يومك يا سيدة الحنان!

بعد أن لذت خلفها عدة مرات وتأكدي من جلوسها قبلي في مكان تكون فيه كساتر وقائي بيني وبين والدي حدثت حينها معجزة عدم حدوث الهجوم المحموم للتنفيذ، فقد استهلت الجلسة بمحاضرة طويلة عن الأخلاق والسلوك

الحسن وأغلبها تنبيهات عن نتائج الاختلاط بالفاسدين وما يجب أن أتعلم مما جرى، وألا يتكرر ذلك وعندها تكون نتائجها وخيمة وعقوباتي مضاعفة لأن هذه ستبقى سابقة في صفيحتي كرصيد سيء محفوظ للمستقبل وقد أجدها يوما كاملة مع فوائد كبيرة جدا، والأهم فيما سمعت من العبارات الختامية ما يبشر بالسلامة وبلوغي شط الأمان.

وبعد زوال الغمة واصلت على فترات متقطعة جولاتي المكوكية اليومية نحو فتحات النافذة ويدهشني أن أجده في نفس المكان متلصصا بنفس الطريقة باستمراره بالظهور والاختباء خلف زاوية الزقاق، ووجدت في تكرار رؤيتي له على تلك الحال ما يحرك بداخلي في تصاعد أشياء أخرى جديدة تساهم بالتحديث في جذور موقفي السابق منه إلى الاتجاهات المناقضة، ساهمت في تحولي بتدرج من شدة التصلب الى الرقة حتى انتهت بي لأكون أكثر رغبة في التسامح والصفح، ثم تحولت وبتمكن إلى محامي له وأنا أبرر وأدحض حتى حصلت له أخيرا على حكم البراءة من جميع ما حدث لي، بل أوشكت أن أطالب نفسي وأهلي بالتعويضات الكبيرة له عن ما لحق به من معاناة في زاوية الزقاق، وما أن اقتنعت بهذا الحكم والنتيجة كان أقترب دخول وقت صلاة العصر، وذهب والدي كالمعتاد وخرج أخي للعب إلا أنا، فلم أزل عازفا عن الخروج ومترددا أو محرجا.

أثناء جلوسي بالغرفة وحيدا وأصوات جلبة الشارع واللعب تنصب بأذني قفزت في ثورة مفاجئة لا أعرف كيف ولماذا انطلقت إلى النافذة ولأفتح نصفها العلوي

على مصراعيه وتعمدت ألا انظر ناحية الزاوية ومحولا وجهي نحو عيال الحارة وهم يلعبون الكرة في زقاق الفرن أسفل المنزل، ولا أظنه تردد كثيرا قبل أن يظهر بكامل جسمه من المكمن، وأخذ يلوح بيديه كي أراه، واكتشفت أني أملك مقدرة مذهلة للنظر بعين واحدة إلى من يلعبون الكرة بينما العين الأخرى "كالحرباء" تشاهد حركاته في الزقاق البعيد ومعها جميع الإشارات التي رصدت بدقة، وغرقت أثناء ذلك في التفكير والتحليل ولعلي أتوصل بعدها ما يعيد بصري ويثبته في وجهة واحدة كبصيرة، ولما وجدت الأرقام تقفز متنافرة وقعت في حيص بيص، وسلمت ببلوغي الهزيمة واليأس فقررت أن اندفع باتجاه التهور، فاستدرت بجسمي نحوه ولوحت بيدي مستفسرا عما يريد؟ وفهمت من إشاراته التالية أنه يطلب مني النزول الى الشارع، فلوحت بالرفض ومتحججا بوجود والدي، فأشار وهو يضع كف يده بصورة الذقن وبأنه قد غادر منذ مدة، فأرسلت إشارة الإصرار على الرفض والى وجود أمي خلفي، فتوقف الإرسال للحظات ثم عاد بإشارة يطلب أن اسمح له بالاقتراب من النافذة ليحدثني بأمر هام، وبعد تفكير وتمحص من خلو وسلامة المواقع الخلفية وافقت ودعوته وبالإشارة أن يتم الأمر على عجل، فأنطلق نحوي قاطعا الشارع الكبير بسرعة الريح وما أن أصبح تحت النافذة حتى تمكنت من رؤية آثار الدموع التي مسحها ماتزال مساراتها ندية لتباين اللون الفاضح بين مكانها عن بقية لون الوجه ووجنتيه الأشهبين من الجفاف وطبقات الغبار، وكان مبتسما حقا وبسعادة غامرة وحيّاني بحماس ورددت عليه بإشارة قصيرة حذرة مع نظرات سريعة

متفحصة للخلف، واستغربت بأني لم أعهده قبل هذه المرة يتردد أو يتلعثم في الكلام؟ ولأول مرة أرى ابتسامته الساخرة قد توارت خلف ابتسامة حقيقية ضاحكة! فسألت نفسي بدهشة: كيف تلعثم هذا اللسان السليط الفصيح وكيف أشرقت ابتسامته؟ وقبل أن تنبس شفتاي بأي حرف قطع حديثنا صوت جلبة عظيمة تجتاح أذني ورفعت رأسي باحثا بعيني، لأرى أعدادا من البشر والخيول والحمير قادمة من البعيد في بداية جانب الشارع الكبير المواجه للنافذة والموصل لسوق البلد الكبير حيث يمكن رؤية الامتداد وما فيه من التحركات بمدى البصر، وشاهدت تلك الكوكبة قادمة وستتجاوزنا لتكمل طريقها في الطرف الآخر من الشارع، وتبين ما على ظهور الخيل والحمير والعربات الكرو من الرجال ومن حولهم وخلفهم في جموع وأفراد راكضة من الناس، وما إن اقتربوا كانت الخمسة ثوان مع أجزاء الثانية في قفزات كافية لقدميّ لتجعلني منتصبا على تربة أرض الشارع وواقفا الى جوار صديقي أحمد عريكة وأنا أضع ذراعي دون أن أدري على كتفه بينما هو أحاطت بي ذراعه واستند بكفه على كتفي القاصي مسرورا بهذه اللحظة والموقف السعيد الذي أنزلني إلى جواره، ولكن أنظاري وأحاسيسي في شلل أشخص في المشهد والحدث المفاجئ والغريب الذي يتبين فيه من يتقدم هذا الحشد ويبدو أنه شخص يعرفه معظم أهل الحارة إلا أنا!

وظهرت حتى معرفة صديقي به جلية كموسوعة كاملة بعد أن صدرت منه شهقة عن تفاجئه وهتف صارخا باسم الرجل وكأنه غير مصدق وقوع ما تراه عيناه:

- سليم أبو عرب"؟

سليم أبو عرب!

وقفت متجمدا في مكاني متخللا سيل من الصبية والشباب والرجال مأخوذا بالمشهد ولا أريد أن تفوتني منه لحظة بشيء ما وما زلت لا أفهم أي شيء مما أرى، فالموكب يتجاوزني مهيبا بتقدم حصان متباهي يتقدم لمسافة ثم يقف متراقصا برأسه وعنقه ويحرك قوائمه كأنه مازال يعدو حتى يلحق به البقية ويكون بين صف المجموعة المتقدمة من أعوان الرجل بملابسهم المشابهة لقائدهم بثياب ناصعة البياض ارتدي فوقها "صدرية" سوداء ولا تميزه عنهم سوى "العمامة" أو" العمة" البرتقالية الكبيرة والمائلة نحو أحد الجوانب حتى الأذن تقريبا ويتوسط منها مرتفعا قمة "الكوفية" أو الطاقية البارز كالهرم كطربوش أبيض مدبب، وعندما أقترب أكثر أمكن رؤية زخارف عمامته الحريرية وشاربيه المفتولين وفي إبطه "مشعاب" ضخم طويل تلونه النقوش النحاسية وبين لحظة وأخرى يرفعه من المنتصف ملوحا به كتحية يرد بها على الهتافات المنطلقة من جانبي الشارع لمؤيدين ومعجبين ومباركين له بالنصر الذي أجهله، وهم يشكلوا تجمعات صغيرة وصفوفا لا تنتظم من الواقفين ويتراكض بينها الأطفال والشبان ببهجتهم بالزعيق المبهم وبالتلويح وإيماءات من أصحاب دعم من المحلات على الجانبين جعل شعر رأسي ينتصب ولم يهبط لهول الصراخ العالي والمتصل للأولاد بينما يشق الشارع ببطء موكب الفارس مستعرضا جموع أهل الحارة

بخيلائه وتبختر حصانه الذي عرفني لاحقا صديقي باسمه المعروف والمشهور "الريح"! وهذا الريح هو حصان أسود جميل ومتناسق وأشتهر بتحركاته الراقصة في المواقف وكما يريد فارسه –كما قال صديقي–وتأكد أمام الجميع بوضوح وكأن الحصان أيضا يعرف تماما مدى حسنه وبراعته وشهرته وعلو مكانته ومحبته بين الناس وقبلها افتخاره بمكانته بين كل الخيول والحمير في نفس الكوكبة المرافقة والحيوانات الأخرى في كل حارات البلدة أما التي يتجاوزها الموكب على الجانبين فيدرك بأنه يشعل غيرتها برشاقته فيختال مبدعا بخطواته وراقصاته ليؤكد لهم بأن الذي على ظهره ليس "بردعة"!

وعربجي! بل هو سرج وثير وقشيب بالزينة المبهرة والأحزمة الجلدية ويجلس عليه سيده فارس الحارة وربما لأنه يرى أن من حقه الافتخار بنظرية الشمولية لمبدأ الشراكة مع سيده فيكون هو سيد خيول وحمير الحارة ومن حقه أن تتباهى به أيضا، أما بقية حمير الموكب فقد دخلت هذه المنافسة وتجاوزت في الزهو ربما لأنها تظن وتفهم باستحمار بأن كل هذه الجمهرة هي من أجلها وقد تزينت أيضا بالسلاسل والأجراس والأحزمة المحيطة بجسمها وتتدلى من البردعة أو السرج "القيطان" المجدولة بعدة ألوان منتهية بالكثل الصوفية والحريرية المكورة وبما يشبه الزهور المتفتحة، وظهر عليها امتلأ أجسامها بالقوة ببروز الكتل العضلية والمغطاة بالكامل بنقوش وزخارف هندسية مرسومة بإبداع من أشهر مزيني موضات الحمير في البلدة وفيها آخر خطوط التنافس المميزة بالقص والتقصير والحلاقة للشعر مع كثافة صباغ الحناء بأشكال مبتكرة على

القوائم وجوانب الجسم حتى العنق والرأس كما كانت الحوافر تأخذ نصيبها من الزينة وبالحدوة المعدنية.

لحظات خيالية، تملكتني فيها أحاسيس غريبة ومختلطة بين الحماس والخوف، وتحيطني قشعريرة تنتشر في بدني وكل أطرافي كلما تصاعدت الهتافات والصراخ مع مؤثرات المشهد المهيب المدهشة بما أراه لأول مرة ولم أجد له بعد أي تفسير إلا بالمزيد من الاستغراب.

بوصول الموكب الهائج بالفرح ومحاذاته لنا حتى أنطلق نحوه أحمد أبو عريكة بجرأة ومد يده ليصافح المشكل "سليم أبو عرب"! وأخذ يهتف له بصوت عال وبكلمات لم أتمكن من سماعها ولا فهمها وأندفع ليقبّل ركبة المشكل ثم أستدار يركض باتجاهي ولكن المشكل المهيب جذب لجام الحصان للتوقف وقام الحصان بحركات عصبية أو استعراضية رافعا قوائمه الأمامية في الهواء ورأسه للأعلى، وظننت أنها غضبا مما فعله أحمد، وعلمت بأنها حركات مقصودة بعرض المهارات ويجيدها الفارس بالتوافق مع الحصان وبالتدريب والهدف منها إمتاع الناظرين وإثارتهم،

أستدعي "مشكل الحارة" صديقي أحمد الذي أرتد ركضا نحوه فورا ودون أدنى تردد حتى وقف ملاصقا لساق المشكل ورفع رأسه للأعلى وأخذ ينحني بظهره للخلف كي يتمكن من رؤية المشكل الذي قهقه بصوت عال ثم راح يسأله بما لم أسمعه والظن عن اسمه وبلدته وكذا عن أهله وأوضاعه ثم هز رأسه مبتسما وأخرج من جيب سترة الصدرية قطعتين لامعتين من النقود الفضية أحدهما أكبر

من الأخرى ودسهما في كف أحمد وألتفت إلى رجاله ومن معه وبنظرات سريعة كأنها حملت إشارة الانطلاق ووكز جوانب الحصان بعقبيه جاذبا اللجام مع صرخة مقتضبة قفز بها الحصان واقفا على أقدامه الخلفية وأخذ خلالها راسه وصدره يؤدي حركات والتفافات جنونية أكثر روعة مما سبق وبدا لي بهذا وكأن الحصان يحاول العدو بأطرافه الأمامية في الهواء أو التعلق فيه ولأطول وقت بينما تعالت الهتافات وصرخات الانبهار من الصبية وبعض الحضور وكأنها أرضت غرور الحصان وصاحبه لينطلقا للإمام بخطوات سريعة وتوقف فجأة بعد قطع مسافة عشرة أمتار ليكمل المسير خببا متراقصا كعادته في زهو حتى لحق به الآخرون، وربما كانت تتكرر كل هذه الأمور على امتداد الزقاق

الكبير حتى توارت بقايا فلولهم تماما.

كنت قبلها سارعت في ذعر لتلقي صديقي أحمد وهو يركض نحوي قفزا وبسرعة ليتلافى الدهس تحت سنابك موكب الخيل والحمير الجامح فور إشارة المشكل ولكنه توقف على جانب الطريق دون اكتراث بنجاته أو بنجاح مناوراته للتجاوز في المغامرة الخطرة بل جمد في مكانه فاغرا الفم وعيناه تحملق بدهشة في حيث يستقر بريق فاتن في راحة كفه الصغيرة ودون أن يشعر بأن يده الأخرى كانت مستمرة بالتلويح كالمخدر بالشكر أو بتوديع الموكب، وبعد أن قطع مسافة كبيرة وقارب على الاختفاء في نهاية الشارع الكبير تنبه أخيرا لوجودي بجواره والتفت نحوي في نظرات غير مصدقة فأتجه نحو صدري يضمني بفرح ثم راح يعدو حولي كحصان يوشك أن يقلع عن الأرض من فرط

سعادته حتى توقف بعد لحظات أمامي وهو يلهث وبكلمات متقطعة لم أفهم منها في البدء سوى ختام كل عبارة حتى سمعته كالمستفسر يقول لي:

- انت ما عرفت ايش اللي حصل البارح؟

هززت رأسي بالنفي لأن ما دار ويدور حولي برمته منذ رأيته وما شاهدت من الموكب العجيب ما زال يفقدني تركيزي والمقدرة على التفكير أو استعداد للدخول في أي حوار، فتجاهل وتابع الكلام بنفس النشوة والفرح وبعبارات متقطعة ممتزجة بأنفاسه:

- حارتنا رجعت لنا البارح! ومعاها حارة البخارية!

احنا سيطرنا كمان على حليفتها حارة اليمانية! واليوم

كل الحارتين صارت ذا الحين تحت سيطرة حارتنا

لما هزمهم مشكل حارتنا البطل سليم أبو عرب!

لكأن هذا الاسم مصباح قدح في عتمة دماغي المشوشة وأنبهت أركز لما يقول لإماطة حجب وأسرار الموكب والأهازيج وحيرتي ولكن حدث له توقف اجباري عن الكلام ليستجمع أنفاسه من الضياع وتابع من جديد بنفس البهجة مضيفا ما يلزم نقل الخبر من تمثيل وحركات تصوير مفصل للأحداث وما فيها:

- والله! رجَّعها مشكلنا "سليم أبو عرب" في مواجهة

تحدي للثأر في وسط المزمار في ميدان "المسيال"!

وبضرب قويه من مشعابه النمرود "فشخ" فيها راس

مشكل حارتهم الرهيب " أبو قرعة الروسي".

راح صديقي الخبير يتوسع في الشرح فأوضح بأن الاسم الأخير هو لقب الشهرة المعروف للمشكل الثائر الذي سبق وأن أنفصل بسيادة حارة البخارية لفترة ثم أضاف لسيادته الحارة الشرقية بعد أن هزم مشكلها سليم أبو عرب حتى استجدت أخيرا بينهما المواجهة في الليلة البارحة، ثم أستمر يكمل خبرها والتفاصيل كشاهد عيان:

- **لكن بعد ايش؟ بعد مناورة يا ستار! معركة طويلة طاح فيها "أبو قرعة" على الأرض والدم .. يشرشر من رأسه زي "البزبوز".**

وأكمل بقية تفاصيل المشاهد:

- **وبعدها نزَّل كل السنيدة المشاعيب على الأرض وراحوا يباركوا للمشكل حقنا وعاهدوه أنهم يخلصوا له ولا يعصوه أبدا وبعدها صار الشباب والناس كلهم يرقصوا على"المزمار" حتى بعد نص الليل لكن!**

بعدها .. أنا.. رجعت هنا ...

في اللحظة التي لفظ فيها كلمة "العودة " حدث شيء عجيب! كان منذ قليل يشع أحمد بالبهجة وهو يتحدث ويسرد التفاصيل في حماس وبريق الأفراح يتراقص في عينيه اللتان لم تعدا ضيقتين بل أصبحت أراهما تتسعان في بعض العبارات لأحجام أوسع مما رأيته من عيون واسعة وأمكنني رؤية كامل حورهما حتى توقف به الكلام عند تلك العبارة!

لكأنها حملته فجأة من جوف ليلة المعركة وأقلعت به من أمامي وقذفت به في واقع مجهول آخر لم يتعرف عليه سواه، وليتشتت ويتبدد جميع ما كان في ذهنه وعقله وقلبه من الكلام والصور الى ما حول روحه المتقدة بالسعادة رأسا على عقب إلى حال تفيض بالكآبة والحزن العميق ليدب في حيويته الفتور والغموض وينحسر اتساع عينيه وينطفئ بريقهما من حتى ابتسامته المتجمدة طالها هذا التغير وتنوي أن تختفي للأبد أو تتستر خلف ستار من الصرامة أو وشاح من التجهم، فتأثره المفاجئ غشى روحه وسحنته باللون الداكن بلبس رداء الهموم، فاذا به يتقدم نحوي بهذه الحال بخطوات متثاقلة خافضا رأسه ونظراته إلى الأرض بانكسار فاجتاحتني حالة من القلق والدهشة ممتزجة بمخاوف خفية، ولكن تأكد لي كل الصدق فيما أرى وليس مشهدا تمثيليا؟

رأيت بعيني جفاف سريع للشلال الذي لا يكف ولم يضمحل يوما عن تدفقه بالمرح وجريانه الكاسح بالنكات والطرف وبفيضانات من النوادر الساخرة فأجده اللحظة أمامي واهنا ممزقا من الأحزان وقد كل جفت حيويته حتى صوته

الهادر الذي لم يجيد الهمس أسمعه بدهشتي ينساب في تردد وتلعثم وبنبرات تكاد تسمعها تختنق ألما وتوجعا وكآبة وهو يقول:

- يا صاحبي! أنا من البارح ما نمت!

ويا ما حاولت أنام في ذاك البيت الجديد، اللي يبنوه في زقاق "العدني" ..

كنت طول الليل أوقف في الزاوية أستنّا يمكن أشوفك تطل من الطاقة .

وبعد لحظات توقف:

- حتى اني ما رحت للحلقة! قلت يمكن تطلع وأقابلك وان رايح المدرسة! قصدي اطمئن عليك، لكن!

وأكمل:

- صدقني! أنا مشيت وراكم البارح ومن بعيد، وكان أبوك شايلك على كتفه ويركض في الظلام ...

والله كنت أركض وراكم وخطوة بخطوة وكان في نفسي أكون معاكم، وبينكم لكن كنت خايف ..

ومع أن الموقف يبعث على الكآبة والحديث وصوت المتحدث به يعبر بعمق عن معاناته وشدة حزنه في ملامحه ونظراته المرهقة سهرا وشجنا إلا أن ما يرافق

ذلك من حركات تمثيلية لوصف تفاصيل الحدث بدقة أراها أمامي كما الواقع وهو يقوم بها لا إراديا بموهبة خبيرة أثرت في نفسي ومخيلتي بتصورها بأحاسيس جديدة في رؤية ذلك الحدث البغيض ولكن من زوايا وأبعاد أخرى تحمل متعة وجمال بعيدة عن تلك التي عشتها بنفسي وبآلامها الحقيقية، وراح يكمل:

- والله! كنت مرعوب عليك ويا كم تمنيت إني أقدر أجي
  لكم لكني خفت بصراحة!
  ورحت أمشي وراكم حتى وانتم راجعين وبعدها ..

هذه المرة طال توقفه وروعني رؤية سقوط دمعات من عينيه وقام بالتفاتة سريعة ليمنعها أو يخفيها وراح يكمل بمرارة:

- وجلست طول الليل في زاوية الزقاق لكن .. على آخر
  الليل شافني عم دخيل الله "العسه" ولما نوى
  يطاردني جريت أندس في وسط العمارة الجديدة،
  وأذن الصباح وأنا ..

توقف من جديد عند نهاية العبارة ولبرهة وهيئته العامة ما تزال بعيدا عن قرب الضحك والابتسام بل تشعرني باستمرار اجتياح الهموم له وازدياد ثقلها على صدره وعرفت هذا من خلال خبرة جديدة بدأت بمعرفتها ورأيت تشرب لون وجهه بلون يحمل معاني وتعابير التألم وكأنه يعايش من جديد كل أحداث ليلته الطويلة الباردة في ظلمة المبني الخاوي إلا من ركام الحجارة والرمل

والأخشاب، وبما فاجأني باندفاعه نحوي كالمستجير وطوقني بذراعيه ودس رأسه على صدري وهو يغمغم في إعياء بالغ!

هزني الموقف وارتعشت أعماقي بعنف وطوقته بدوري مشفقا وأسندت ذقني على هامة رأسه، وكنت أسمع كلماته في همهمة عميقة لم افهم أكثرها ولكن صوته الشجي كان يجتاح روحي في أعماقها وترتجف أوصالي مما يخترقها من مشاعر نازفة بالبؤس والشقاء وأنا أسمعه يقول ويكرر بصوت واهن حزين:

- يا صاحبي! أبغاك تسامحني بجدّ، والله أنا ما كنت
أبغاك تشوف المسحوق، والله! لكن، لقافتك ورطتني
وأعمتني. وتصميمك على أكلها أحرجني ..

كان يتوقف كثيرا ليكمل باكيا ورأسه على صدري:

- حسيت إني بين نارين وحاس إنها في كل الحالتين
بأخسرك وفكرت، وقلت أزعل نفسي ولا تزعل مني،
ومن يومها وأنا أتألم، وأشوفك من بعيد وأحسك انك
زعلان مني...

توقف وأراه يعتصر حزنا متجرعا بغصة ثم أكمل وكأنها كلمات ممتلئة بالمرار:

- واليوم، مدري ليه حاس إن صداقتنا انتهت وللأبد
واني خلاص فقدتك، زي ما فقدت ابويا وأمي ..

بدأت في الانهيار الشامل وانجرفت باكيا بعنف عندما خذلتني الإرادة والرغبة في التماسك وهو يقول مضيفا:

- يا ليتني ما أعطيتك! ما كان لازم أعطيك ذرة وحده

لو انطبقت السماء على الأرض، بس انت!

انت اللي جبرتني ..

كنا ما زلنا نطوق بعضنا بكل قوية ونحن نجهش ببكاء مريع، وفيما يقوله ما يتجاوز كل طاقة تحمل وأنا أسمع منه ما يعتصر قلبي بكل قوة متمنيا أن في صدري بابا فأدخله وأحميه وأخفيه عن أبي وأمي ونبقى على صداقتنا للأبد.

توقف صوته لهجمة تشبه الخدر على اثر إصابته بالإعياء الشديد وكنت أنا أيضا طرحت برأسي فوق كتفه لأستند عليه أيضا لإحساسي بالإرهاق وبقرب انهياري، ولم تتوقف دموعي عن الانهمار بغزارة على كتفه ملطخة ثوبه ببقعة واسعة وأنا أستمع لتعذبه وشقائه بصوت الصمت الذي يسمعه قلبي هادرا ويجيب عليه بما فيه بصمت بلغة تخاطب الأرواح، وهذه لا تسمع ولا تتفهمها إلا بعض القلوب حين تسري بينها عبر الأثير رغبة التواصل، وبلحظة مفاجئة توقف عني كل هذا برجفة خوف أشبه بلدغة أفعى لأتنبه وأرفع رأسي بنظرات مرعوبة إلى حيث نوافذ البيت وعلى القادمين من وسط البلد على امتداد حتى نهاية الشارع الكبير وهتفت أعماقي ، يا الهي!

لقد عادت الي ذاكرتي! وهاجمتي عهودي لأهلي وانطلقت أشباح مخاوفي من مكامنها وبدأت هواجسي تعصرني بينها وبين من طوقني بذراعيه يسأل عن أمان مفقود ليمتلئ الآن قلبي بالحسرة ويمزقه اليأس بعد أن استطعمت ثم تجرعت بكلامه مرارة الندم الصادق وها هي أمامي تنفذ في جوف عيني بكل آلامه التي ولجت برؤيتي للتقلصات الغريبة على وجهه الذي أبصره متحجرا ورفع رأسه ورأى ما أنا فيه من الربكة والحيرة وعواصف قلق

تغشى عيناي وهما تفتشان نوافذ البيت وامتداد الشارع!

كانت لحظات قصيرة التقت فيها نظراتنا في صمتنا لتتعرف على مدى عمق الخيبة واليأس لتملأ أرواحنا بالانزعاج الذي يثور من تنبهنا للواقع في رؤى خفية للقادم في حياتنا بأحاسيس تفجرت غامضة وغير مفهومة في هذه اللحظات، سوى أحاسيس في ومضات وكنزف حاد في قلبينا وجميع الأحشاء كي نشعر بأنه لن يتوقف نزيفنا مما لن نحتمل ونطيق فتراءت كلمحات لمعاناة القادمة من الندم، وأن علينَا تقبل حكم الموت قهرا لصداقة ما تزال تتدفق في شراييننا بالمحبة الصادقة وما كانت وجدت الا لتبقى فينا حية ما حيينا!

في لحظتنا الغريبة القصيرة وأحاديث صمتنا لا أعرف كيف مددت له يدي مصافحا دون أن أبالي هذه المرة أو أتذكر توعد أمي وتخوفي من مشاهدة كل ما حدث ويحدث من خلال مرصدها في النافذة، وبما يثبت بأني قررت في تهور بالتمرد بنزولي الى الزقاق والخيانة في خرقي لكل الوعود والعهود!

ومع هذا كنت أشعر بأني لا أملك أي قدرة أو جرأة حقيقية لنسف تلك العهود أو الخيانة وما على سوى الاستمرار بأن أدعو الله فقط فيما بيني وبين نفسي بألا تنهار صداقتنا وأن تعود وتبقى ولا نفترق بعدها أبدا، لأني مدرك جيدا بأن خيانتي وعدم الالتزام بالعهود لن يمنحاني السعادة في البيت ولن يتركاني أنعم بعدها بالسلام، ففي تذكري للعهود الذي قطعتها على نفسي لأمي وأبي بقطع غلاقتي مع صديقي أحمد أجدها كطعنات مؤلمة في خاصرتي وكلدغات سامة تضخ في داخلي سموما تؤلمني وتصيبني بالحمى وبارتعاد حقيقي لأضلعي وما بينها وتقلصات موجعة بعضلات قلبي. وتزداد بي قوة الحس بهذا الألم كلما لاح بمخيلتي لحظة التقاء أعيننا وكيف أغرقت الدموع جيوب ثوبينا أثر العناق العفوي الباكي وكأنها تؤكد بأنها هي الأقدار وأنها حقا لحظات وداع تعلن فيها بدء الرحيل والفراق، فأحس معها بأن فتات تمزقي هذا يسحق أيضا وتتحول الى ذرات كالبخار تنتشر وتتطاير في الهواء لتكون لا شيء فأحاول التمسك بشيء من دوامات التبخر لأجده وجودي الزائف!

هو ما يتبقى مني وأنا أنهي تلك اللحظات البائسة قائلا له وبصوت خفيض وفي خجل شديد من خروجه من فمي حتى وأنا متيقن بأن والدتي ووالدي لا يسمعاني وان تمنيت من يأسي في تلك اللحظة أنهما يسمعان ما أقوله لأنها كلمات التأبين القاسية لصداقتنا المذبوحة:

- اسمع يا صاحبي! لو كان عليّ أنا فأنا مسامحك

وبقلب صادق، حتى أهلي قالوها كلمة حق انه أنا

الغلطان!

وما لي أي عذر فيها، لإن نفسي الطفسة والبليدة هي

اللي ورى كل ما حصل!

والمفروض لو عزمتني والا غصبت عليَ اني

ما أقبل أحط شيء ما أعرفه في فمي ...

وأكملت حتى النهاية المؤلمة وكانت تخرج مني الكلمات وكأني أسمع نصوص لغة لا أفهمها أو لشخص مجهول الجنس:

- حتى إني ما سمعت نصيحتك، والنتيجة بكل أمانة ...

إن أمي وأبويا منعوني من ساعتها أقابلك أو أشوفك،

حتى وان كان صعب عليَ أتخلى عن صحبتك وخوتك

لكن ما أقدر أعصاهم! ولازم أنا .. لازم إنه ..

لازم إحنا ..

لم أستطع إتمامها بل لم أتمكن من إخراج حرف مما صعب علي أو ما لا أرغب قوله يوما، وأنقذني من ورطتي أن عيني رصدت على مرمى النظر في أقصى الشارع الخطر الحقيقي بقدوم والدي عبر امتداد الشارع الكبير، وكان أقترب كثيرا وهو يحمل كالعادة بعض الأغراض أو حاجات البيت، ودفعني الذعر لأن أطلب منه الإسراع بالهرب قبل أن يرانا!

نعم! انطلقنا نحن الاثنان، وفي مفترق طريقين، فكل أتجه في طريق وباتجاهين متضادين أو مختلفين، فغاص أحمد وبسرعة في عمق زقاق العدني الضيق متجاوزا زاويته المعتادة التي يرصد منها أي ظهور لي من باب البيت أو النوافذ وبما أتجه فورا الى حيث مخبأه وملاذه المعتاد في العمارة التي لم ينتهي بناؤها ولا تبعد أكثر من عشرين متر عن الزاوية، وفي نفس التوقيت والسرعة كنت أنا تجاوزت دهليز المدخل أقفز العتبات للطابق الثاني ثم السطح، وكان لحظة بدأت أعدو باتجاه المنزل يغزوني إحساس مريع يلومني ويؤكد لي بأن ركض أرجلي هذا على الأرض وبهذا الخوف هو حفر للقبر العميق لدفن صداقتي مع "أحمد أبو عريكة" وتتوارى فيه تلك الحقيقة وللأبد، وهذا ما أخذ بزيادة تألمي وشعوري بانقباضات قلبي الموجعة بعنف من تدفق هذه الفكرة المزعجة فاجتاحتني رغبة شديدة بالبكاء أو الصراخ، فركضت أقدامي تصعد السلالم بعنف للنهاية فتكشف لي الفضاء صافيا رحبا إلا أن انقباض قلبي وضيقي تبقى معي وفي قفص صدري وبأنه سيبقى كل ما تبقى من المساء وسأظل في ما بعده مهموما منعزلا بخواطري وكدري، وبالفعل لم أعد أشعر بأي حماس أو رغبة للخروج للعب مع الآخرين كالمعتاد، وفي خضم أمواج أحزاني كان توتري ينبئني بأن في قلبي نواة عنيفة تتوالد في زوبعة ستثور وتتفجر في أعاصير جارفة وفي دوامات سريعة ستدفع بي وبحياتي الى عين الإعصار، ولن أستطع بعدها التشبث بأي ثوابت، وحاصرتني المشاعر السوداء مع عنف الدوامات، ولا أدري لماذا وهي ما تزال مجرد أفكار بدأت تعصف ودور بي الخواطر وكأني بدأت

أحس بالفعل لحظتها بأن جسمي أخذ ينهصر وينصهر وأخذت تنسلخ عنه بعيدا أشياء عظيمة وكأنها أجزاء خطيرة تنفصل عن روحي وفكرت أن روحي ستتركني وستترك مكانها فراغا مظلما ومخيفا، فأخافتني التخيلات فركضت نزولا من السطح في فزع أبحث عن أمي أو أحد أخواتي.

جلست بينهم ولكن أفكاري تحلق بعيدا، فأنا أرى تغير نظام حياتي وتناغم أيامي الجميلة السابقة التي كنت أعيش فيها بصحبة صديقي أحمد، فمنذ الصباح كثيرا ما أجده منتظرا في طريقي ونتحدث حتى نصل إلى المدرسة ثم نفترق ولكن إلى اللقاء الآخر عند خروجي من المدرسة ظهرا. كان نظاما دائما وثابتا حتى في احتفاظي بنصيبه اليومي المعتاد من فسحتي لم يختل ولا نصيبي عنده بما يسمعني من مشاهداته في يومياته المشحونة بالعجائب.

حقًا سأفتقده!

سأفقد كل ما وجدت في صحبته ولقاءاته من السعادة ومتعة الالتقاء الروحي والأخوي المتبادل بيننا، وستختفي من حياتي لحظات الغروب! فلن يسمع الليل بعد اليوم حكاياتنا ولن تحلق فيه أصوات ضحكاتنا ولن ترى النجوم بهجتنا وهي تحوم فوقنا بينما نحن على رمال الدكة الناعمة، بل ستجدني في صمتي وفي وحدتي الحزينة، لأني ومنذ الآن سأكون وحيدا بجسمي ومشاعري بعد أن كنت ألغيت بل نسيت منذ أشهر كل صداقاتي القديمة وقد تغيرت عليهم أفعالي وكل برامج الأيام الماضية، ولأني ومنذ اليوم سأضل تائها وعن أي طريق

للعودة إليهم سريعا، بل سأشعر بأنها طريق تشعرني بالخوف وستملأ قلبي بالكآبة.

فأنا بعد دخول البيت وبعد آخر مواجهة مؤلمة بصديقي أحمد وحتى هذه الساعة لم أرغب بأن ألتقي بأحد فيه، ولا أدري لماذا تأخر وصول والدي، فلقد عدت نازلا من السطح ولكني بقيت ملتصقا إلى جدار الدهليز بجانب مدخل الدرج المؤدي للسطح، وتدفقت براسي الهواجس من جديد والرؤى وتزاحمت في مخيلتي الأفكار واذا بدمعات ساخنة تتسلل ثم تفيض وتزحف ثقيلة على خدي في طريقها للسقوط فتنبهت لوقع خطوات قادمة من أقصى الممر فأسرعت أمسح أدمعي بأطراف أكمامي وأنا أستمر بالركض صعودا متسلقا الدرج إلى السطح مرة أخرى حيث وجدتني في جوف نوع آخر من الجلبة والدبك والملاحقة من أختي "زين" وهي الأكبر مني لأختي الأصغر "فتّو"، وهذان الاسمان لم أكن أعرف بأنهما للتدليل فقط وأن لهما اسمان أصليان لا يستخدمان مطلقا أو نسيتهما تماما وهما زينب وفاطمة، وكالعادة لا تتوقفان عن اللعب والركض ككل عصر حتى يتم غروب الشمس، وكنت قبل وصولي إلى السطح أسرع بإزالة دموعي وكل ما تبقى من آثار البكاء حتى لا أجد منهما الشماتة والسخرية، كما عالجت مظهري وملامح سحنتي تحسبا لتورطي باللعب معهما، إلا أني لم أستطع مقاومة رغبتي المكبوتة بالنظر من شرفة السطح، فمنها يمكن أن أرى الشيء الذي انتزعته الدوامات من قلبي وأعماقي هذا اليوم، ورغم النداء المتكرر من أختيَ للعب معهما إلا أني توجهت

إلى الفتحة بأعلى الشرفة وقمت بسرعة بتجهيز متطلبات الارتقاء للنظر من خلالها وهو صندوق خشبي يوضع في المكان المعتاد قرب جدار الشرفة، ثم أخذت أقوم بإعداد نفسي للتلصص وتشجيعها لسرقة النظرات بحذر مع موازنة لوضعي جسمي ورأسي بالوضع المناسب للرؤية دون أن أنكشف ويراني منها "أحمد".

في البداية وحين لم يظهر منه شيء لفترة طويلة شعرت بعدها بالأمان مع حزن في العمق لا أود آن يتسلل ويخرج إلى من جديد، فأظهرت رأسي بالكامل لأقوم بالنظر وبحرية في الجهات الأخرى ولعله يراني ويخرج من مخبئه، وصدق حدسي وإذا برأسه تبرز حقا من نفس الزاوية وفي نفس المكان، ولما تأكد بأنه يشاهدني قفز مظهرا بقية جسمه كي أراه، ويبدو انه ابتهج برؤيتي، وقبل أن يقوم بأي تحرك أو إشارة أخرى لا أعرف حقيقة ما الذي دفعني لأسرع بالاختباء والنزول فورا من على الصندوق وأتجمد في مكاني لثواني، ولأتخلص من تزاحم القلق انطلقت لأعدو مبتعدا عن الشرفة مطاردا أختي الصغيرة، وما هي إلا لحظات حتى أكتمل اندماجي باللعب أو محاولا ذلك قسرا.

الا أن صورة ملامح وجهه الأسمر الضئيل في الزاوية تأبى أن تغادر مخيلتي ولا ابتسامته الغامضة ونظرات عينيه الغائرة الذكية التي تضيق أحداهما وكأنه يغمضها عمدا بينما يرفع رأسه مائلة للأعلى ومبتسما وهذه جاهزة دون تكلف ويقوم بهذا عند تعمقه أو توصله لفكرةٍ وعند النية بتزويد لسانه بمواد يجلد بها

الضحية التي تسببت بمضايقته، فأحاول طرد تلك الصور بعيدا وأستمر باللعب ولكنها تعود.

ومع بدء تحول أشعة الشمس الذهبية للاحمرار قبيل الاختفاء تاركة آخر أخبار هذا النهار مع نهاية هذه الخلفية الملتهبة خلف جبال الهدى البعيدة العالية وقد بدت تزحف الظلمة بظلالها المعتم نحو جبال الجانب المقابلة في الشرق وحينها انطلقت في أجواء سماء البلدة أصوات المؤذنين بأذان صلاة المغرب من عشرات المآذن والمنارات وهم يقفون بأعلاها فتتردد أمواج أصداء النداء العظيم في طبقات الفضاء ناشرة الطمأنينة مع الهيبة والرضا مع الشعور بالامتنان بما قسمه الله من الخير في نهاية هذا اليوم، وقبيل الانتهاء من لفظ آخر الأذان بعبارة الشهادة بالألوهية الأخيرة تفجرت أصداء تزامنت معها !

ولكنها استمرت قوية ولم ولا تتوقف لحظة بعد سكوت الأذان!

لقد بدأت مدوية، وكصرخة واحدة قوية متصلة لتأخذ في التباين وتخرج عنها أصوات صراخ متشنج ومتنافر وزعيق وبكاء أخذ يتعالى مع نداءات مرعوبة تتردد بين جنبات زقاق العدني لتنتشر منه كمكبر الصوت تشق طريقها إلى طبقات السماء والى كل الجهات!

وبمرور لحظات تأكدنا بأنه تلك الأصوات الرهيبة ليست من آذان المغرب، بل صراخ مرعب أخذ يزداد ويرتفع منطلقا من كل مكان وعلى امتداد الأزقة ومن جوانب الشارع الكبير ثم ترافق ذلك بتدفق الراكضين وتهافت المستطلعين من كل حدب نحو مدخل ذلك الزقاق الصغير المسمى زقاق العدني وقد رأينا هذا

عندما تسابقنا أنا وأخواتي وتدافعنا على صعود الصندوق ناسيا أمر الزاوية وصاحبها حتى رأيت الناس تقبل وتدخل متجاوزة تلك الزاوية وفي نفس الزقاق الذي يجلس فيها صديقي أحمد، ومع امتلائه بعد ثواني كانت جموع أخرى غفيرة مازالت تتوافد وتحتشد في الزقاق الكبير وتتدافع لدخول الزقاق الضيق ومنهم من يسقط في إغماء أو يركض صارخا أو ينهار باكيا، وازداد أيضا باندلا ع صرخات النساء في رعب وكذا الأطفال ومتواصلا من نوافذ البيوت داخل الزقاق الصغير والمقابلة والمحيطة على الشارع الكبير حيث فتحت أبواب البيوت وأشرعت نوافذها وفتحات الرواشن والمشربيات ممتلئة بنظرات العيون المذهولة والمتسائلة في هلع كالذي اجتاحنا ونحن لم نعلم مثلهم عن الخبر ولم نر ذلك الشيء المجهول الذي جعل أقدامنا تتسابق بالهرب ونزول عتبات الدرج للبحث عن أمي لنختبئ ونحتمي بها بكل تأكيد ، فإذا هي في غرفة الجلوس أو المراقبة ملتصقة أيضا بالنافذة المرصد تنظر وتحلل وهي أكثر منّا رعباً ومازالت مثلنا لا تعرف شيئا، ثم سمعنا طرقا عنيفا على باب المنزل الخارجي وصوت أخي "عزيز" أو عبد العزيز يصرخ من ورائه لنفتح له الباب.

ما إن فُتح حتى أنطلق وبنفسٍ واحد إلى حضن أمي وهو يتكلم ولا نفهم منه شيئا مما يقول، وتعيد له أمي السؤال ويجيب ولا نحصل سوى على النتيجة نفسها، فقد اختلط كلامه مع تعبه ولهاث أنفاسه بالخوف إضافة الى ما لديه من عيوب النطق التي وجدته عليها بعد ولادتي بعدم وجود القدرة الاعتيادية على خروج أفكاره والتعبير عنها بوضوح نطق سليم، فبعض الأحرف تعلق بلسانه

في تأتأة وسأسأة وثأثأة حتى ينتهي المراد، ولذا تضيع إجاباته لنا بين تلك الإشكالات وتتبعثر المعاني مع هذيان الرعب، فأخذت أمي تهدئ من روعه حتى سكن وعاد إليه جنانه واتزانه فقالت له:

- يللاه! أتكلم، بهدوء وقول لنا وحبة حبة حتى نفهم
  وعلى مهلك! اش اللي صاير هناك برّا؟

وبتحليل معقد للكلمات والحروف والأنفاس المتقطعة أمكن تجميع هذه المحصلة:

- يا أمي! فيه حريقه! واحد آدمي أنحرق، في البيت
  الجديد اللي يبنوه في زقاق العدني، وبيقولوا ..
  يمكن يكون واحد من العمال؟ ويمكن أحد ثاني

وفي هذه الأثناء دخل أبي وهو يضرب يدا بيد ويردد عبارة واحده وهو يهز رأسه يمنة ويسرة دامع العينين:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، ولا حول إلا بالله!
  أسطغفر الله العظيم يا رب ..

بادرته أمي مستفسرة بهلع عن تفاصيل ما حدث ويحدث في الشارع وأجاب وهو في حزن وحسرة بعد أن هز رأسه لمرات:

- تصدقي؟ إن الولد المسكين هذا هو اللي اسمه أحمد!

اللي كان صديق حسين! ايوه، صديقه! مسكين!

ثم في غمغم في تألم:

- يا لطف الله! بيقولوا انه بعدما خرج العمال دخل

بعدهم وحصَّل هناك تنكة قاز وإلا يمكن بنزين الله

أعلم! وراح يلعب بيها ..

وبعد مناورات بالتمايل والاستغفار والحوقلة يكمل:

- هناك من يقول صبها على نفسه! وإلا يمكن ولعت فيه

النار بالغلط؟ وإلا ..

زي ما يقول البعض إنه يمكن واحد من العمال

سواها فيه، أو واحد تاني غيرهم لكن! الله أعلم!

والله هو العليم وهو الخبير!

يا لطيف ألطف بينا

وبعبادك يا الله، بس ..

لا أذكر ما الذي حدث أو صدر عني! فبعد أن ذكر أبي اسم صديقي أحمد أصبحت أسمع صوته ببقية الكلام وكأنه أخذ يبتعد أو يسقط في أعماق بئر سحيقة!

ولكنهم قالوا لي فيما بعد بأنهم سمعوا شهقة مكتومة واحدة ثم سقطت على ظهري. لست أدري عن مقدار المدة التي مكثتها في مركز إسعاف الهلال الأحمر المعهود حتى أعادني أبي إلى المنزل، ولكن الذي أعرفه تماما في هذه الأيام وبعد أكثر من خمسين سنة من ذلك اليوم أني ما زلت أحمل شهادة الصف الرابع وفقط ولم أتجاوز الى مرحلة (الصف الخامس) حتى اليوم!

لم أشفى تماما منذ ذلك التاريخ من كوابيس مفزعة ورؤى لأشياء ماضية وتداعيات غامضة ومخيفة في الوعي وفي الأحلام ما زلت تزورني فيها شخوص من ذاك الماضي وأراها في كل ليل وأحيانا أراه يحترق أمامي ويستنجد بي ويطلب مني أن أغيثه، ولكن أكثر ما أراه في أحلامي عنه أننا نعدو في سعادة ونلعب ونضحك في شوارع طويلة والبساتين حولنا عالية الأشجار وممتدة ليس لها نهايات.

وحتى هذه الأيام تعود أن يشاهدني أهل الحارة وأكثر الناس ممن عرفني ومن لا يعرفني وأنا أسير في شوارع البلدة الصغيرة التي أصبحت مدينة كبيرة وشوارعها كثيرة وهم يرون على جانب من وجهي ملامح ابتسامة حقيقية ولكنها متحجرة وعالقة على الدوام تلقي أو توحي بسخريتي من كل شيء أمامي أو

أنظر اليه بينما تغلف باقي الوجه مسحة حزن شفافة من الحزن مع عينين أحداهما شديدة الضيق وتحملان تنظران في سخط نحو كل ما تقع عليه ومع ذلك المظهر العام الذي يعطي عني انطباعا صادقا يؤكد استمتاعي بحالة الهبل أو البلاهة أعيش فيها.

وهكذا تظل تلك الابتسامة الغريبة العالقة أبدا والتي أسرتني وسيطرت على طفولتي وبقية حياتي ولتبقى على جسدي متجمدة أو متحجرة لا تتغير أبدا في كل الأوقات وكل الفصول، هي كالحفر على الصخر، لا تحمل أي تعبير محدد سوى السخرية الساخطة في مسحة حزن جانبية تكاد تبين يسير بهما مظهر للبلاهة وكلها تظل تخفي في غموض حقائق عن حكاية طفل حزينة جاء فارا بحياته وأحلامه من أعماق أقصى الجبال لا يحمل سوى ابتسامة غامضة لطفل غامض لقي مصيرا غامض.

وفي الختام وبعد أن دفن الماضي رفاته وقبل أن يتم الحاضر دفن كل أثر لحكايات ماضيه أوجد شاهد على تلك القبور لم يتمكن الزمن حتى اليوم من دفن معالمها في مقابر النسيان حين دفن كل جثامين في زمن تلك الحكاية،

وترك لي وعليّ تفاصيل ما فيها في "ابتسامة غامضة" محفورة على جانب من وجهي!

وسأحرص على تدوينها منذ هذا اليوم وان حفرا على الصخر قبل أن نفنى أنا وابتسامتي معا في جوف الأرض وحيث قبر فيها الطفل ذو الابتسامة الغامضة.

******

يوم في دحلة الجن

في أطراف الشمال الشرقي من حارات وأزقة "شعب عامر" ينحدر واد ضيق يسمى منذ القدم بشِعب (دَحْلة الِجن) وفي منتهاه وبعد الوادي يبدأ ريع الحجون المعروف، والشعاب هي فروع أودية تصب في وادي مكة الكبير، وهذا الشعب ينحدر كغيره من الشعاب الموجودة على الامتداد الجبلي الأسود الشامخ في سماء مكة المسمى "جبل أبو قبيس" وهو الجزء الذي يكمل السلسلة الجبلية الجاثمة كطود واحد منها جبال "الفاقد والخندام" التي تشرف على الحرم المكي والكعبة المشرفة ومحاذية لوادي "الأبطح" ووادي مكة الكبير وكان فيه الطريق الوحيد من والى المسجد الحرام والمشاعر، وتنحدر عن مجموعة الجبال العديد من الشعاب المختلفة الأحجام وفروعها، وأهمها وأكبرها نزولا هما الشعبين المشهورين "شعب علي" و"شعب عامر" وينحدر فيه شعب دحلة الجن.

وحارة شعب عامر هي الأكبر حينها وتعتبر هي الأم لحارة "شعب الدحلة" الذي يرقد في ظلال الجبل المسمى بالأسود أو جبل أبو قبيس أما حارة الدحلة الصغيرة وهي حارتي وبها مسقط رأسي فكان اسمها بالكامل (حارة شعب دَحْلَة الجِنّ)، ولكنه أختزل وأصبح الاسم الدارج والشائع حارة الدَّحلَة أو الدحلة فقط بعد أن نُسى اسمها القديم فيما بعد أو أُغفل عن عمد وترصد كراهة وكيدا بالجن!

فأنا لا أعرف حتى اليوم سبب تسمية الشعب بذلك وعلاقته بالجن، ولكني أتخيل أنه كان مستوطنة قديمة خاصة بالجن قبل ظهور الإسلام، وأتذكر أن موقع "مسجد الجن" المشهور بحكايتهم مع رسول الله (ص) وهو غير بعيد عن الحارة، فأتخيل أنهم سكنوا هذه الدحلة أو الشعب واتخذوها ولاية أو عاصمة قبل إسلام بعضهم ورحيل البقية التي لم تسلم عنه وبلا رجعة بعد ظهور الإسلام وانتشاره في تلك الأرض المقدسة ونزل الأمر برجمهم.

ويقابل شارع شعب "دحْلة الجن" الشديد الضيق في نهايته وعلى الجانب الآخر من وادي مكة جدار جبلي آخر شديد الارتفاع يخترقه طريق قديم شديد الضيق وعسير الصعود والنزول والمسمى "ربع الحجون" وكأنه على امتداد طبيعي أو مدروس تخطيطيا مع الحارة، وكان الربع ممرا قديما لقوافل الجمال القادمة والمتجهة الى جدة والمدينة والشمال عموما، وتم نحت ممر يتسع لمرور الاختراع الجديد المسمى بالسيارات ليطلق عليه اسم "الربع المنحوت".

وأذكر أن هذا الطريق يتخلل سفوح منخفضة وتقع فيها مقابر أهل مكة القديمة والمتأخرة من قريش مثل قبور المعلاة وبها قبور أجداد وأقرباء الرسول (ص) مثل عمه أبو طالب.

ومع تلك التوسعة ظلت تجد السيارات في هذا الريع أثناء الحج المشقات والصعوبات والكوارث العظيمة، ففي صعوده يتطلب أن يساند الركاب سياراتهم بالدعم بالحجارة حتى تبلغ قمته ومنه تتجه الى غاياتها كما تواجهها مصاعب أكبر عند الانحدار منه وبإشكالات أخرى قد تؤدي إلى انفلات المكابح وانقلابها.

ومعظم حارات مكة القديمة نشأت وقامت حول مسجد "الحرم المكي" وتكاثرت بتلاصق المباني على امتداد وادي مكة في شعاب الجبال على جانبيه في كافة الجهات، وعلى فروع الأودية فكانت أولا بأجياد والهجلة والمعلاة والمسفلة وثم الشبيكة والشامية وحارة الباب ومن جهة أخرى القرارة والنقاء وسوق الليل وشعب علي ثم شعب عامر ثم يستمر البناء. الى الجودرية والمعابدة والى العدل وغيرها.

وبنفس الطريقة نشأت حارة الدحلة، حيث بنيت على أطراف الشعب ثم في بطن هذا الشعب، وكانت المباني عبارة عن صنادق أقصد أكواخ من الخشب وصفائح التنك ومن بيوت ذات الدور الواحد المبنية بالحجارة والبعض مطلية بطبقة من الجص أو الجبس وتنتصب بينها مباني تأخذ أشكالها الفريدة المشابهة للقصور بالأعمدة الكاملة أو البارزة من الجدران مع الأقواس الجصية

فوق الأبواب والنوافذ، ولبعضها بوابات ضخمة مزخرفة تفتح عادة على "ديوان" جميل للضيوف وأمامه غالبا ساحة تتوسط منه بركة أو نافورة وعلى جانب أحد جدرانها أو قرب مدخل البيت " الحنفية" وهي مستودع" تجميع وحفظ الماء" يملأها "السقاء" بانتظام مع شروق الشمس بما يجلب من الماء على أكتافهم "بالزفة" أو على عربيات الكرو وعلى ظهور البغال والحمير والخيل المسنة، وتنقل هذه المياه من " البازان" الكبير وأظنه كان يحمل اسما قديما وهو "بير الحمام" وكان يسقي معظم سكان حارات الشعب. كما تشمخ بجوار تلك التحف القديمة العريقة القدم بيوت وعمارات جديدة من ذات الدورين والثلاثة أدوار وأكثر، وتتناغم في ألفة مع أخرى أكثر قدما بنيت بالحجارة المهذبة وأخريات بالطوب الياجور الأحمر ويسمى الآجور وهو طين محروق، فتبدوا جميعها عن بعد كعرائس في غاية الحسن وهن يستعرضن قاماتهن وجمالهن، فبينهن الشامخات الطول ولكن مباراتهن في جمال الواجهات المميزة لكل واحدة، بما يغطي جدرانها بالكامل من النقوش بالألوان والزخارف الفنية والهندسية المحفورة على البناء من الجبس والأخشاب لتكون عملا مميزا ذو شهرة خاصة لمالكه ومتعة للناظرين، ولتعتبر ضمن أروع التحف المكلفة والثمينة في نفس الوقت في البلد.

وما هو أكثر تميز ويدهش البصر ويعلق في الذاكرة هو التعمد وبتحدي بأن تعرض كل فاتنة روائعها من كل المشغولات الحجرية والجبس والمحفورات الخشبية التي تغطي معظم واجهاتها، فتتصل وتنفصل في تناسق جمالي وبالدقة

لمنمات بأصغر المساحات والمجسمات الضخمة، والتباري فيما بينهن في إبراز تلك الفتنة يرجع إلى ما يقوم به المعلمين وهو الأساتذة وأبرع "أساطين الصناعة" والحرفيين المبدعين في زمانهم، فأظهروا قمة البراعة في أعمال البناء وخلاصة تجاربهم والتميز في مدارسهم في فن العمارة وفي صنع الأبواب والنوافذ وما تحمله من حلى ونقوش إلى جانب قمة الأعمال في العمارة الحجازية وأعمال صناعة "الرواشن" الخشبية التي ستحجب خلفها الدرر الحقيقية الغالية من العرائس الحسان من بني الإنسان، وهؤلاء المهرة يُظهرون في أعمالهم الجدية في التنافس والتحدي وهم يضعون كل عصارات خبراتهم في فن التجميل والجماليات على الأبواب وشبابيك النوافذ وفي هذه الرواشن بالحفر والنقوش المذهلة، فتشاهد في النهاية قمة وقيمة ما بذله البناؤون والنجارون وأمهر النقاش والرسامين على الخشب والجبس والدهانات في تزيين كل عروس في داخلها وعليها من الخارج، وكل مبنى هو خلاصة مهارات حرفيين مع عصارات أفكارهم وخبراتهم المتوارثة حتى يقف ذلك الجمال وتبقى تلك الأعمال شامخة عقودا عديدة وصلت في بعضها إلى قرون، وعليها شواهد على براعتهم في نقوش بأسمائهم وأزمانهم مع العبارات الجميلة والأدعية في زخارف وبأسماء الله الحسنى.

وهذه المباني متراصة بحسب انحناءات الشعب أو شارع حارة الدحلة"، وتتخللها أزقة كثيرة على الجوانب لتفصل بينها وتتغلغل الدروب صعودا ونزولا في الجبال في تعرج أفعواني، وشارع شعب الدحلة وأزقته ليس لها عرض منتظم

بل تصبح حينا أكثر ضيقا في مكان وتتسع بعد مباني أخرى وهكذا على امتداداتها، وقد تأخذ كل مرحلة أو زاوية منها أسما جديدا عندما تنسب لأهم ساكن أو لصفة بناية أو حدث ما في هذا الجزء لتحديد الوصف الدقيق لمكان ما وبالدقة المتناهية مثل زاوية كذا وزقاق بيت الحريري والحمامي وزاوية بيت عبدالواحد أو كرويتة المعلم "الجزار" وغيرها.

وهذا الشارع الأفعواني هو مجمع لجميع الأزقة والنافذ الوحيد من الشعب الى وادي مكة أو شارع الحرم ويستمر صعودا لأعلى شعب دحلة الجن بأسفل الجبل الأسود لتتفرع فيه الأزقة وتتصاعد على سفح الجبل بين بيوت مبنية من صفيح التنك المشهورة "صنادق" وقد التصقت ببعضها على امتدادات الأزقة.

وقد تشاهد هذه الجدران المعدنية الصدئة أو المطلية بالرخام لسنوات وتجدها ذات صباح قد زالت أو اختفت بالكامل ليظهر مكانها ما كان يبني خلفها من الحيطان أو الغرف بالطوب الأحمر أو صخور مهذبة أو كيفما أتفق، وقد أشرقت بلون الجير الأبيض فيتخيلها الرائي مع ما حولها من البعد بين صفحات الجبل الأسود بعتمة بعض الصنادق الصدئة وتعرجات الأزقة ومع درجات الانكسار لانعكاسات نور شمس ما بعد الظهيرة وحتى الغروب امتدادات مذيلة طولية وعرضية وبارتفاعات متفرقة من البقع الناصعة البياض واللامعة كأسراب طيور "الغرنوق" المهاجرة والنوارس، وترى هذا المشهد المدهش في بكر الشروق وعلى أذيال شمس الغروب.

ولأن الأراضي الشحيحة في هذه الجوانب تعتبر مملوكة من القدم ويطلق عليها (أحكار) أو الأراضي الوقفية القديمة جدا فلن يتمكن أحد من تملك أي أرض أو بيعها " شرعا" بصكوك ملكية حقيقية مستقلة، ولكن يمكن استئجار أو شراء المنفعة فقط أو بيعها كأرض فضاء أو بالبناء للانتفاع بها كمساكن مستأجرة بحسب الاتفاق، ويمكن أن يؤجرها للغير أو يبيع منفعتها بالتنازل عن مصالحها وليس أصولها بالاتفاق مع ناظر أو الوقف. ولأن والدي أحب مهنة البناء وأصبح يحظى بلقب "معلم بناء" وتعني مقاول معماري في مفاهيم هذه الأيام، حين وجد من وفرة طالبي العمل المهرة ممن يتخلف من الحجاج للتزود بما يساعدهم على العودة أو التبضع للأهل فأصبح واحدا من الذين قاموا باستغلال أراضي الأحكار الفارغة أو البيضاء في هذه الرقعة من الشعب، بالاستئجار أو شراء حقوق المنفعة مباشرة من" القيم عليها" أو الوصي أو بالتنازل ممن يملكون حقوق الاستفادة مسبقا، فيبني عليها مساكن جاهزة لتأجيرها أو بيع منفعتها الكاملة لهم بالتنازل حسب العرف السائد حينذاك ويكون بموافقة أو بمباركة "القيِّم" على تلك الأوقاف بشرط ضمان دفع المستحقات الخاصة بالوقف من جميع الأطراف، وبدأ أولا ببناء الصنادق حتى أصبح قادرا على بناء البيوت العادية الصغيرة ذات الدور الواحد. وكسب في هذا النشاط ما مكّنه من شراء مباني أو عمارات كبيرة جاهزة أو عمارة الجديد منها ومن غير الأحكار على شارع وأزقة حارة الدحلة، فأشتهر بعدها بهذه المهنة أو التجارة. ورحل أيضا بهذا النجاح في سنوات لاحقة للشراء والبناء في ضاحية "الحوية"

ثم في بلدة "الطائف"، التي بدأت تستقبل أفواج جديدة تسمى المصطافين وأخذوا يقدمون من العاصمة ومدن أخرى.

وكان عرف هذا التنقل في فصل الصيف والشتاء كعادة

لأغلب سكان "مكة المكرمة" وما جاورها في تهامة الحجاز وساكني الطائف ومن على شفاء جبال الحجاز بأن يقيموا في مكة وما حولها الأكثر دفئا في الشتاء، أما في الأيام الحارة أو الصيف فتكون الرحلة عكسية وصعود إلى أعالي جبال السرات حيث بلدة (الطائف) والضواحي والقرى الباردة.

والعجب أن يكون يوم واحد في التاريخ قد يعني حدثا تغير فيه مصير أمة في العظمة أو نحو الانهيار، أو يحمل تاريخ بدأت فيه أحداث هزت هذا العالم وحمل بعدها وجها وصورة أخرى جديدة جميلة أو مريعة أو مقيتة كيوم داحس والغبراء ويوم النزول على سطح القمر ولكن يومي هذا هو من النوع " السياحي"!

أي ذلك الذي يحمل حقا تفاصيل صورة لحياة عاطفية وليس لأمة خلال حقب التاريخ الطويل، فهو مجرد يوم اعتيادي قصير في حقبة تاريخية مثل يومي هذا في حارة "الدحلة".

بدأ هذا الصباح وأنا في صخب أفراحي بتجاوزي لسن الرابعة ببضع شهور، ولأن بقية الأيام التي تلته كانت على وتيرة ونسخة متطابقة في أحداثها وتفاصيلها، لذا فان يومي هذا لم ينتهي إلا في صباح ذلك اليوم الذي بلغت فيه سن السابعة ودخلت فيه بعيون دامعة وخفقات قلب جديدة، وغريبة بالرغبة المكبوتة عن البكاء وقد كفّت يدي عن التمسك بثوب أبي ليرحل ويقودني

الرجل الآخر وأنا في شبه غيبوبة الى حجرة الصف الأول بالمدرسة، ففي ذلك اليوم كانت التغيرات التي حدثت وظلت تحدث كل صباح كثيرة وكبيرة التأثير في نفسي كانسان وفي الحياة من حولي، كأن جميع أيامي قرنين كاملين متراكمة في صندوق البخت، فيأتيك يوما من القرن التاسع عشر وغدا من العشرين.

لهذا لم ولن أستطيع أن أتذكر غيرها من هوجاء وأحداث هذا العصر الجديد، بل لم ولن أفكر بأن أحكي أو أكتب شيء عن يوم من أيامه، لأنها وببساطة لم تترك في نفسي وذاكرتي تلك الانطباعات العميقة والمليئة بدفء الحب والإشراق والخيال والطرافة والمتعة المسكوبة في قدح البراءة مع شروق شمس كل يوم من أيام الدحلة.

وان كنت لا أتذكر حقا بأني علمت في بدايات يومي التاريخي هذا بوفاة الملك "عبد العزيز" غفر الله له، أو أدركت أن من تولى الحكم بعده هو ابنه الملك سعود وأخوه الأمير فيصل وليا للعهد، ولكن ربما شعرت بأن أيام الحياة والأشياء والأنماط أصبحت تتغير في قفزات متسارعة، وكل يوم ترصد أحداثه كتاريخ مستقل بذاته لا يمت لسابقه فاللاحق هو من قرن آخر جديد.

أحداث فترة يومي هذا بالذات تبدأ كالعادة في الصباح الباكر مع شروق الشمس، وقد تظن أنه لم ولا يوجد في هذه الفترة شيء من المتعة أو الإثارة لي كطفل، بل كانت كل ثوانيها مليئة بالمتعة والإثارة، ومثلها حدث بالأمس وما قبله وستحدث أيضا غدا، وروعتها تتكرر في كل يوم وتحدث فينا هذه الإثارة كأول مرة، أو تضاعفت إثارتها بإضافة مجموع يومين من السعادة، ورغم

أن أحداثها مكررة التفاصيل إلا أن الأحاسيس الوقتية بها وفي عمق تأثيرها يستمر في تصاعد خلف اللامحدود، وعندها تكون كالسعادة الأزلية.

هي بالفعل أحداث يوم واحد أدرجت تفاصيلها كاملة وشاملة في فيلم تسجيلي في عدة ثوان ويكاد زمن تكرار حدوثها أدق من توقيت الساعة، ولكن! عمق تأثيرها يمتد حتى الآن وسيمتد لأكثر من هذه الخمسين سنة، وستدوم لو دام العمر في قرون، أما اختلاف التأثير وتجدده يوميا فهو لغز!

عندها يصبح حديثي هنا هو الشيء المكرر فقط، فالشمس تشرق كل يوم، ولكن هل كل من أشرقت عليهم شمس الأمس من الأحياء على الأرض هم من تشرق عليهم شمس هذا الصباح ودون أدنى زيادة ودون أي نقص؟

فكم من حياة بعثت وكم من حياة رحلت أو اختفت بين لشروق الأمس وهذا الشروق؟ وعند كل شروق جديد!

وهل كل الباكين والضاحكين سيظلون دوما وعلى هذه

الحال وفي كل شروق؟

وهل سيظل الباكي على دوام الحال ومدى الأيام والأعوام يبكي ويذرف الدموع ودون توقف؟

في هذا اليوم وكالمعتاد في كل يوم أن لا يسمح لي ولأخواتي بالخروج من المنزل بعد مغادرة والدنا كل صباح لأعماله، وكالمعتاد يؤصد الباب الخارجي ونظل نلعب ونقضي معظم الوقت في متعة بمطاردة بعضنا أو التزلج على حامي الدرج "الدرابزين"، وما إن تقترب الساعة من الثالثة صباحا "بالتوقيت

الغروبي" أي التاسعة صباحا بتوقيت هـذا الزمن حتى ترهف آليا آذاننا لما نتوقعه وننتظره، وبالفعل نصدق ويقرع الباب "جدّي ناصر" بحلقة الباب النحاسية بطريقته المعروفة والتي نحفظها جيدا فنتسابق راكضين لفتح الباب له وللتسلق بعنقه ليغدقنا أو نغدقه خلالها كيلا! بل بسيل من القبلات وهو يوزع علينا لفافات ورق على شكل كوز مخروطي مليئة بأصناف ملونة من الحلويات، وتأتي أمي لتلقي عليه التحية وبعد لحظات يغادرنا ونحن نتشبث به، ولكنه يتركنا وكلانا بشيء من الانكسار ولكنه سيكمل رحلته وزيارته لبيت عمي محمد، ثم عمي مرزوق وغيرهم لينفح أولادهم مثلنا مما يملكه من مخزون المحبة في لفافات الحلوى المعتادة، أما نحن فنعود من جديد للفرح والضحك باللعب والصخب، مستمعتين به في كل ثوانيه وكأننا لم نلعب تلك الألعاب منذ لحظات وكل يوم ومنـذ زمن.

وفي صباح يومي هذا انتظرنا طويلا، ومرت الساعات مؤلمة وبطيئة حتى تجاوز الوقت المخزن في آذاننا الى منتصف النهار أي ما بعد الثانية عشرة ظهرا بالتوقيت "الغروبي" وظللنا طوال ساعات ذلك اليوم مصدر قلق وإزعاج لوالدتنا بكثرة تساؤلنا عن "جدّنا"؟

لماذا لم يأتي ليداعبنا ويقبلنا ويحمل كل منا للحظة ويقذف بأخواتي الصغيرات في الهواء ونحن نضحك على صراخهن بينما نتلمظ والحلوى تداعب ألسنتنا وتدغدغها بطعمها اللذيذ، وتلك فقط أجمل لحظة في فترة صباح كل يوم

الزمني سبق هذا اليوم، ولو سألتنا في وقتها ستكون هي الأجمل في الحياة! ولكننا اليوم لم نتذوق لذتها لماذا؟

قال لنا والدي في ذلك اليوم بأن جدي سافر إلي اليمن في مهمة وسيتأخر هناك كثيرا ولم أزل أنتظر عودته كل يوم وطوال سنوات من ذلك اليوم.

أما مساء هذا اليوم فهو دافئ كالعادة حين اجتمعنا حول عربة "الداندورما" والآيس كريم المثلج في ذك الزمن، بعد أن يمزج الثلج المجروش والمطحون مع "الخربز" أو البطيخ الأصفر ويقال له الشمام ويضاف السكر ثم يغرف في كؤوس، بينما تقف إلى جوارها عربة لبائع "شعر البنات" أو غزل البنات ونستمتع بمشاهدة حفنة السكر وهي تتلاشى وتتحول إلى كمية كبيرة من القطن كما يدهشنا ذوبانها اللذيذ بسرعة داخل الفم، ثم تأتي بعد قليل عربة أخرى تحمل "السحلب" الساخن وتقدم أخرى "بالبليلة" السابحة في طبق الخل وتركيبة الفلفل المميزة، وما ان نترك الحوم حول تلك العربات حتى تنطلق سيمفونيات جديدة قادمة إلينا من الأزقة، وهي مواويل جميلة بأصوات قوية وعذبة يتبارى أصحابها فيها لاجتذاب أكوام الأولاد بكلامهم المغنّى والمنمق والمثير للشهية في مخيلتنا فنتراكض نحوهم وحولهم، ثم تصدح مواويل أخرى أجمل قادمة من أسفل الشعب من باعة جوالين آخرين على رؤوسهم" الدوار" وهي ألواح دائرية من الخشب وفوقها زبادي من اللبن الرائب، وفوق آخر أنواع من المعجنات والحلويات "كالغُريبة واللّدو والحلاوة اللبنية وآخر بأنواع من المعجنات المقلية بالزيت "كالقرمش والمنفوش ودجاج البر.

وأول من يحضر في ذلك المساء وقبل كل هؤلاء "الحاجّة مريم" بائعة الفصفص واللوز المقلي وقد أخذت مكانها المعتاد في الظل تحت جدار منزلنا.

وحين تنضب جيوبنا من كل " الهللات" وهي وفقط العملة الوحيدة الدارجة في جيوب الأولاد، ونفشل في الاستدانة تكون الحاجة مريم الأكثر كرما، إذ تعطينا بعض الهبات في حفنات "الفصفص" وحبات من اللوز المقلي وعندها تنحرف أبصارنا عن جميع الباعة وتتحول مواويلهم الجميلة الى نداءات نشازا وتكون تلك اللحظات المناسبة لبدء الاستعدادات للقيام بألعاب ما قبل الغروب المفضلة والمعتادة، وفي نفس الوقت هناك مجموعات أخرى عند باب أحد البيوت أو في أعلى الزقاق عند الزاوية لا تقل عنا مرحا وصخبا ولكننا لا نستطيع الاقتراب منها أو اللعب معها وألا طاردتنا أسلحتهن المؤلمة بالصراخ المغنى:

- الولد مع البنات ... طقته شوكه ومات ..

وهذه التعويذة واللعنة العجيبة تأثيرها وفعلها السحري سريع وأقوى من أي تعويذة هندية أو من أفريقية السوداء، ولكأنها اللعنة الفرعونية المؤكدة والكفيلة بأن تجعل هذا الولد المخترق يعيش يوما سيئا وكالمنبوذ من الآخرين وربما أخذها للأيام التالية.

لهذا اجتمعنا بعيدا وبدأنا بتشكيل قافلة من الأولاد وسيكون في مقدمتها القيادي صاحب الصوت القوي والحسن من بيننا، ويسير للأمام فاتحا عينيه،

ومن خلفه البقية تطأطئ بالرؤوس ومغمضة العيون بأيدي ممدودة لتستند على أكتاف من يسير أمامه، في تمثيل وتماثل للحبال التي تربط قافلة الجمال، وتسير بنا القافلة أو الركب بحثا عن غائب أو مفقود سافر يوما للتجارة بقافلة الى اليمن أو الشام ولم يرجع، وكلنا منادي ننادي في أعماق الفيافي والقفار وحيواناتها وبين خيام القبائل وعشائر العربان".

فيبدأ بنا الولد الأول وقائد القافلة في المقدمة بصوت حزين وشجي وبلحن مميز:

– يا غزال ويا غزال!

ومن خلفه بقيتنا ورأس كل واحد منا تستند على ظهر من هو في الأمام، ولا يرى الطريق إلا السائل والقائد ونحن نردد:

- فينه؟

ويستمر الحوار:

– اللي سافر يا غزال فينه ؟

اللي روح في الجمال فينه ؟

بين الصحراء والجبال فينه ؟

ياللي شافه يا غزال فينه ؟

حظه ناقه وكيس بالمال فينه ؟

وله الدعوة ابن الحلال فينه ؟

وكنت عند هذه العبارات أبكي دامعا حقا وبصدق، لأني في هذه اللحظة كنت أنادي فيها وأبحث عن "جدّي" الحبيب الذي قالوا أنه رحل وراء جبل أبو قبيس الأسود الشاهق إلى أرض اليمن ولم يعد، حتى اليوم.

ونظل نعيد ونزيد في هذا الكلام ونغير في القيادة إلى أن نَملّ ويأتي دور اللعبة الأخرى، وكأنها حفل أو معزوفة الختام الذي يجب أن نختم بها كل مساء يومنا كالمعتاد، وهي الغناء والرقص التنافسي على رتم المزمار وبأداء بترديد أناشيد التحفيز بزومال مقلدين فيه الكبار وكما تعودنا سماعه في سهراتهم على ايقاعات ورقصات المزمار المعروفة:

- ويا سارية خبريني ... عما جرى خبريني

ونضيف ما نحفظه وما تطلقه ألألسن ببداهة من تمجيد لحارتنا الدحلة ولحارة الشِّعب بالأخص وجميع الحارات الموالية، وبنفس الروح ما يتوارد من ألحان ورقصات مع صوت ايقاعات على أي علب صفيح متوفرة، وغالبا ما نردد في مجموعتين الأنشودة الجديدة والتي نستمتع بتكرار ما عرفنا من عبارات وما لم نفهمه:

- سفرجله سفرجله .. ايش جابك من اليمن

ونكرر بنفس الصورة الشطر الآخر:

جابوني تكارنه .. حملوني حِمل الجمل.

ونظل على هذا الرتم مع ما نضيف اليه حتى نشعر بانتفاخ رؤوسنا من الصداع والدوار وتسلل الينا الملل وأخذ منا الكلل مع أقبال الغروب وقرب حجب الجبال لشمس يومنا الرائع.

ولكن تتبقى اللحظات الأخيرة وما ننتظر فيها من المتعة مع قدوم حاملي "الأتاريك" وهي مصابيح إنارة عامة للشوارع والأزقة، فنترصد قدومهم وهم يقبلون من أسفل الشارع الضيق في مجموعات مضيئة من رجال يحملون هذه المصابيح المشحونة بالهواء المضغوط وتتوهج مع وقود الكيروسين، فكل رجلين يحملان مجموعة منها تدلى على قضيب قوي وطويل بين كتفيهما، فتدب فينا نشوة أخرى من نوع جديد بالتسابق نحوهم ركضا ونستقبلهم فرحين بالأهازيج والتصفيق، ونسير معهم وخلفهم وهم يحملونها حتى تعلق جميعها على الأعمدة الخاصة بها في زوايا الشوارع وصعودا في أزقة بيوت الصفيح الى الأعماق العالية وكانت توشك أن تصبح عما قليل أشد ظلمة مع المارد الصخري أو الجبل الأسود التي ترقد على صفحته، ولكنها ستتلألأ في السواد مضيئة بالمصابيح لتتصل للرائي مع بريق النجوم وكواكب السماء.

وبعد الغروب تبدأ حركة الكبار من أهل الحارة للإعداد للسمر والجلوس على المراكيز والكرويتات وهي مصاطب مصنعة من الخشب وخاصة بأهل مكة وان كانت "الدكة" الأرضية المرتفعة المسورة بالطوب ومفروشة بالرمل أو بالحصير تبدو خاصة بأهل الطائف وكلاهما تعتمد في وجودهما على تواجد الشخصيات المهمة المؤهلة والمضيافة والودودة في الحارة.

ولا أدري كم يطول "بالأتاريك" من الوقت حتى تلفظ أنفاسها لأننا كصغار الحارة لن نبقى مستيقظين إلى ما بعد صلاة العشاء، ولكننا بلا شك نقضي أسعد الأوقات تحت أضواء هذه المصابيح المتوهجة بعد مغيب الشمس وبدء حلول الظلام لوقت قصير بعدما أن ينال منا التعب من الجري واللعب منذ بعد ظهر هذا اليوم الذي استنزف آخر السعرات الحرارية في دمائنا في لحظات المغيب فيكون الغروب إعلان استسلام حقيقي قريب.

فنجلس لاهثين مشكلين دائرة تحت مصباح أحد هذه الأعمدة نتوسل من يجيدون حفظ وسرد الحكايات أو السوالف وهم قلة ولكنهم تمرسوا بمهارة التنويع في الإلقاء ويتفننون التجديد في تصوير المواقف المعتادة بأساليب أخرى مثيرة مما يجعل نفس الحكاية المكررة لأسهر وكأنها تسمع لأول مرة، فلا نمل من سماع وترديد حكاية "الحبنجرة" وحكاية بنت الحطاب والغولة والسبع بنات وحكاية "فداوي اليمن وفداوي الشام" وغيرها، والحقيقة لن يتمكن أحدنا من سماع أكثر من حكايتين ليغزوه النعاس، ومنذ البدء ومع أول حكاية والبعض منهمك بالاستماع يكون البقية في جهاد وكد للتركيز وهم تحت ضغط مما يشبه الخدر ونوبات التثاؤب وفي الأثناء تتناقص الدائرة بالتدرج في انسحابات فردية متوالية ذاتية أو بعد نداء استدعاء من الأهل لأحد مننا يأتي من خلف شباك أو فرجة باب بالتعجل لتناول وجبة العشاء والجميل المحزن أن الكثرة منّا سيصارع حملة شرسة من النعاس أثناء الأكل وسيهزم فيها بالغارات القوية

لسلطان النوم المتمكن وتتساقط اللقمات من الأيدي والفم ومع الرأس مرات قبل الاستسلام النهائي وسننام خفافا ككل ليلة.

وبهذا أغلقت عيناي الستارة على ختام هذا اليوم القصير الطويل بحسابات مختلفة ولاعتبارات خاصة، في رحلة ذهنية داخل حارة" دحلة الجن" في يوم يشبه تماما يوما من الغد وبقية جميع أيام ذلك العهد، ولكني لن أجد له أي وجه شبه، بأي يوم بعد ذك اليوم أبدا.

****

دموع في ليالي القمر

في ليلة من ليالي القمر، عندما تبرد نسمات السَّحر، والقمر يسير وئيدا نحو مخدعه، حيث اللحظة التي سيطفئ بها سناه وتتواري هالاته قبل أن تطويها بقسوة شمس الشروق، وتمحو معها كل بقايا بريق تألق في سواد صفحة الليل ولن تكون بعدها إلا الزرقة الفيروزية في صفاء قبة السماء.

- كم تقتلني ومرارا مواقف الوداع!

قبل كل هذا كان البدر ينظر إليّ، ينتظر مني نظرة الوداع، فهززت رأسي أسفا وأساً، فأنا تشقيني تلك اللحظات، وترديني في طياتٍ من الحزن ودوائر من الضياع.

فتساءلت:

- هل أودعه بالدموع؟

- وهل هذه اللحظة تليق بالدموع؟ وأنا قلبي يرقص فرحا لقرب رؤية حبيب؟

أم أودعه مبتهجا؟ أيليق هذا بفراق حبيب؟

أيليق به أو منّي؟

- أن أكون جاحد للود؟ وناكرا للجميل إلى هذا الحد؟
- ألن أكون في هذا قاسيا، وربما ظالما؟ أو مجرما؟

كم أنسْتُ به، في لياليه، كليلتي هذه، وكم خفف عن قلبي حمى أشواقي وخفف عني من عذاب الانتظار!

كان لي رفيقا، في رحلة الليالي، نحو حبيب الفجر، وكان لي نديما جميلا وحفيظا للسر، ولطيف العشرة!

حتى أحببته، وقد بلغت بي محبته، واعتدت عليه.

ولكن! في غمرة عشقي والهيام نكون وصلنا معا إلى تلال أفق الفجر، وهي مشارف أبواب قدوم، ورحيل لكثير!

وعندها أكون مرهقا حقا بما حملت في ليل المسير واحتملت من الأشواق، وبلغ مني العطش للتلاق ويا حبذا بالأحضان والعناق!

أبعد أن أنهكني السهر في ليلة سفر، لأسعد بطلائع الفجر تقبل مرحبة لاحتضاني من جديد، فأجدها تمزج لي كاس المصير المؤلم! وهو كالتي مزجت للفجر!

وتماما كما مزج له القضاء، فأصبح مزيجا بين الليل والنهار! من الظلمة والنور! من البريق والعتمة! ومن الموات والحياة!

فجعل لي الفجر مثل مصيره هذا كهدية استقبال! فمزج لي وبكأسي التعاسة والسعادة! فكان الشقاء في أسعد لحظاتي مزيج من لوعة الوداع مع روعة اللقاء، ودموع الفراق مع بهجة العناق، ومرير الحزن في الفرحة والبكاء مع الابتسامة، وتداخلت نذر اليأس في تباشير الأمل وجميعها في لحظة رحيل وتلاقي!

لقد جمع وقدم لي باقات من هذه الأضداد في كأس واحدة مترعة، لأتجرعها في نهاية رحلة العطش!

وجعل من تلك الكأس مصير، أبتلع ما فيهما في آن، وفي كل فجر من ليالي القمر!

حيث يسقيني كل السعادة ولكن بقدح ملوثة بالشقاء.

- لأن لي به حبيب .. حتما سأودعه!

حبيب كان سار معي طيلة ليلي، نسابق مسارات النجوم نتخطى أبعاد السماء، وظل فيها هو الأنيس والعزوة، والرفقة في السفر وبيننا عهد ووفاء!

وبلغ معي الآن إلى حيث الفجر الحبيب!

الى من كنت أسافر إليه كل ليالي قمر، وفي قلبي أحمال من الآمال وأثقال من الأماني، ومخزون لهفة أشواق للقاء محبوبة الفجر!

- وانه لي حبيب كما لي فيه حبيب!

والآن!

وبوصولي للفجر، في نهاية رحلتي، ستسكب عيناي دمعتين!

دمعة سعادة ببلوغ الفجر وقرب استقبال حبيب! ودمعة حزن! للوداع والرحيل والانفصال عن حبيب!

دمع كقطرات جحيم وندى! تتساقط في كمين يمزجه الفجر للماء وللهواء، من الساخن والبارد!

وكان مني مثلها، مما مزج لي في اللقاء والوداع!

فتخلقت وتقاطرت فيهما الدمعات!

لأنها الممكن، والممكن فقط!

ونتاج المزيج دمعة وداع ساخنة، مع دمعة فرحة لقاء ضاحكة سعيدة!

- أيَا فجر!

  ما أقساك!

  أأرحل ليلتي باشتياقي لسعادة اللقاء بالأحبة

  وتستضيفني بحتمية هذه الكأس المسمومة؟

  فأودع فيك حبيبا وأنا أستقبل في لحظاتك حبيب؟

- أيا فجر!
- أتنهي عناء رحلتي بسعادة باكية؟
- أهل هذه اللحظات تليق بالدموع؟

- **أيا فجر!**
- **أتيت اليك اللحظة مسافرا بآمالي، وبأشواقي، لأستقبل فيك أغلى حبيب، وها أنت تُكرهني على وداع لفراق أرق وأصدق رفيق!**
- **أفي هذه اللحظة تليق الدموع؟**

*****

أخيرا!

وقفت مرهقا مثقلا، بهواجسي، وممزقا أخلاقيا وحتى أدبيا لأودع مكرها حبيبي القمر!

فكان الاعتذار حتمية أخلاقية، وطلب الصفح يفرضه التأدب. لذا استدرت بكليتي، متجها ببدني وأنظاري نحو الشرق!

إلي حيث عما قليل ستدور هناك، الملحمة الأزلية! حيث الصراع العظيم، حيث يلتحم أعظم الأضداد، انه صراع البقاء القديم، بين الظلام والنور، وبين الحياة والموت وربما بين النار والماء، ولن تنتهي المواجهة إلا حاسمة بالهزيمة مؤقتا! ولكن لابد من رحيل أحدهما وان لم ينهزم الخاسر!

فهناك!

هي ساحة الالتقاء، سيتقدم النهار، على مركب الشمس وتلوح قبلها طلائعه وتتسلل حزم الضياء، وكأمواج المد سيطارد فلول الليل، حتى أقصى أطراف السماء، وسيسجل على صفحة ذلك اليوم انتصار "النور مبدد الظلمات"!

وها هي اللحظة تقترب ويزداد توتري!

أصبحت مشوش الذهن، مضطرب الأفكار محموم المشاعر! ومع كل ذلك أشعر بشيء من الارتياح، بخدر التفاؤل، بإحساس يقين، أنه لابد وأن لحبيبي القمر قلبا كبياض لونه الناصع، الذي أحببته فيه، ولا شك أنه رقيق وكريم، وهو يغدق به على الأرض، يسكبه، ضياءً فضية، تكسو السهول والجبال والأشجار، مزيلا وحشة الليل، والمخاوف، وتملأ عيون وقلوب العاشقين بالرضا والبهجة، بما يملأها بالسعادة والأمل وبالبهجة طوال ليل كان سيطول بهم كئيبا بالأحزان، وعندها!

أحسست بدبيب نشوة، أو ثورة اعتراض عارمة أزلتُ بها حجب تشل الأفكار، وتثبط العزيمة، فبددت رواسب صمت ثقيلة جثمت بيننا للحظات، وأنا أتشجع مرتجلا حماس مشاعري ومرتجلا دفق عواطفي لأقول له:

حبيبي يا قمر!

أيها البدر الجميل! وصاحب الجميل!

وداعا!

كم تؤلمني، وتشعرني هذه العبارة بالإحباط والعجز، وكأني أهوي

إلى اللانهاية أو أوشك الارتطام بالفنـاء.

كم تزعجني وكم تحرقني، تلك لحظات الوداع حين

تحسم الفراق، لهي أشد وأقسى إيلاما متى كانت

لحظات افتراق.

عن حبيب! مثلك! صديق ومحبوب، ورفيق في سفري

وفي الليل نديم وجواد، ومؤنسي في سمري!

فآه! كم كان ليلي يحلوا بك والسهر

وألف آه! من شقوتي بفراقك، ومن عشقك وعذاب انتظار اللقاء بك في قادم الليالي! فبعد لحظات ستتركني!

وسيترك بي فراقك ألما، ومن أجلك! سيجعله صمودي شفيقا ورفيقا ورقيقا!

وحتى يتجدد لقاءنا وعله القريب المنتظر.

أبتسَم لي ولوّح مودعا!

بضوء متعب أنهكته رحلة الليل الطويلة، وبدأ يتسلل للغوص إلى ما خلف ضياء الشمس، وسارع يتخلل في عمق زرقة متباينة في التوهج وفي الألوان، قبل أن يبتلعه اجتياح مركب الشمس العظيم، وزحفه القادم لحسم الملحمة.

وما هي إلا بعض من الساعة، وستضمحل إلى بضع من الدقائق، وتتلاشى في بضع ثوان، ثم تنفُق جميعها!

ثم هناك! سيشتعل الأفق كالحريق، بلونه الدموي الأحمر، كلهيب الجحيم و...

عفوا، عفوا!

إني آسف! لقد ركبت أجنحة الخيال وشطح بي الفكر وخانني التعبير! فأنا أردت القول:

هناك!

حيث سيصحو الفجر، ككل صباح مبتسما!

وتتفتح وجناته في الأفق بلون الورد، وتنفح أنفاسه العبير الفواح من حولنا، وفي هبات أجنحته نسمات الفجر العابرة من خلال أغصان أشجار البساتين المزهرة وتحلق بالبهجة بحملها المثقل بأريج الورود وعطور الفل والياسمين وعبق اليوسفي وأزهار البرسيم، لتهبها هدية، لكل من أفاق مبكرا في ضاحية "الحوية"!

هدية لهؤلاء الأنام، ولمن هجر عذب المنام ليعيش اللحظة فتلقيها إليهم تحية إصباحهم الجميل، وفيها أمنيات السلام والأمان وبأعذب الأماني، ولكن!

أنا لم أزل لا ادري؟ هل أفرح في هذه اللحظة أم أترح ؟

وهل تليق بهذه اللحظات الدموع؟

أأكبت الأنين أم أصرخ! وبصرختي أبقر بطن الفضاء!

فالقادم من هناك!

هي لحظات لن أعرف منها بها نفسي!

أهي مبتهجة أم حزينة؟ أفراق أم لقاء وابتسامة أم دموع؟

والحق! وهو الحقيقي! إني أحببتها!

مع كل تلك اللحظات، بتناقضاتها، وعيشي بين فرحها وألمها!

فأنا أحببت تلك الصغيرة حتى الثمل! بل أريدها أن تمتزج بي الآن! وتتحدَ بي، كدمي وروحي في جسدي.

آح! إنها نسمات باردة!

لن أهتم! رغم إحساسي برعشات خفيفة أخذت تسري وتنتشر بحنان عبر أوردة جسدي، فيقشعر كل بدني مع كل تسلل وحصار وكرة من نسمات الفجر الباردة.

وأنا بثوبي الداكن الخشن والكسوة الفصلية –الوحيدة– في فضاء مترامي بين بيوت القرية المتباعدة أقرفص على في زاوية على جدار إسمنتي خفيض، تخيلته مرارا وقد ارتفع متباهيا بين بيوت الطين، كحائط خارجي لأحدث بيت في القرية من الإسمنت، وكم أخرجتني من جموح خيالي في سكون هذا الصمت الحالك الاختراقات الغير محترمة من "ديك أم شاكر" وساعة توقيته المختلة أو لإحساسه الغبي بجمال صوته فيواصل في كل لحظات صمت بشق سكون الليل بحماس فتتردد معه وبعده أصوات كل ديوك القرية، ولا شك بأنها غير معجبة! بل ساخطة من صوته وتطلب منه الصمت أو ربما هي لعنات مرسلة عليه لحرمانهم من النوم، وكثيرا ما يخرجني ويجعلني أحيانا أسخر من نفسي ومما أفكر فيه!

وحين أخرجني هذه المرة كنت أكاد قبل الأوان أن أسمع صدى صوت دبيب حذائها الصغير اللامع!

وإنها ليست وقع خطى!

بل! هي قبلات على خد الأرض الندية، وقد فرش الفجر الرمل والحصباء كساها بقطرات الطل وتحولت إلى بلورات ماسية براقة، وتلك عطايا مما سيمزجه الفجر المتورد الوجنات!

أما الآن!

فلست أهذي من السهر، أو فقدت الصواب بفعل قرصات البرد! فأنا أرى وأسمع تلك الخطوات حقا! يا الهي!

نعم إنها هي! ولقد أحصيتها مسبقا، ومرارا وتكرارا!

فقط ست قبلات!

وبعدها تكون محبوبة الفجر قد توارت تماما، وسريعا في جوف السيارة "الحبيبة والبغيضة" أيضا في آن!

فهي! تنطلق متباهية بها في نشوة الصباح، وتمر بها من أمامي، بخبث!

وأنا مازالت أحترق بأشواق ليلتي، فتؤجج بي أيضا كل عذاب الحريق بغِيرتي وبالأضعاف.

لأن ما أراه بعينيّ ليس كما أراه بقلبي، وبمخيلتي!

فأنا لا أرى إلا ذك الشقي وهو يختطف محبوبتي الصغيرة، ويحضنها في أعماقه، في قلبه، وأنا عاجز عن إنقاذها!

وأراه ينطلق بها وأمام عيني بزهو بها، هازئا بي، ويتراقص بها، فترقص هي بداخله مع الطريق، ليغيظني، وتتفجر أحقادي! ثم تبتعد وتختفي بها!

وأراها بمخيلتي، تعدو بها رشيقة بقية مسافة الطريق، من ضاحية الحوية إلى البلدة الكبيرة الصاخبة، وهنا!

أشعر بتبدل كراهيتي لها إلى محبة؟

أشعر وكأن قلبي يشكرها! بأنها تحمي المحبوب من أخطار الطريق وقسوة الطقس وعناء المسافة، وأنها أمينة حقا في إخفائها عن كل عيون شباب أهل المدينة المتطفلة والمتربصة كالعادة في الدروب والزوايا حتى تلج وتختفي بين جدران مدرستها وفي الفصول.

وتنتهي رحلات ليالي القمر في بدايات كل يوم دراسي جديد، وإحساسي لها بالأمان، وأكون أنا أيضا قد رحلت

حاملا حقيبة كتبي، وحشرت نفسي في أفواج الطلاب في ساحة المدرسة وفي طرقات وغرفة الدراسة، وتظل تنتزعني منهم وبعيدا عنهم لحظات متواترة، أحلّق فيها مع النسور فوق أسوار مدرستها، وأراها في فصلها بقوة أعين صقر خارقة تخترق الأسقف والجدران، وأخيرا!

ولبقية نهاري، أعيشها ذكريات، استعيد أدق تفاصيل رحلتي في ليالي القمر، فأتحرق شوقا وأملا في بحث وانتظار عن اللقاء الجديد بأحبتي! البدر، وحبيبة الفجر!

علي أبلغ الليلة بهم اللقاء المنتظر!

******

أتذكر وأستعيد كل ما سبق! أي بعد رحيل كل أحبتي، وفي كل رحلة من ليالي القمر، منذ انكسار نظراتي باختفاء كل أثر لغبار السيارة وأنكفئ راجعا للدار أحمل بيدي دفتري، أو "فكري وقلبي الدفتري"!

وهو سجل وقائع رحلاتي في الليالي القمرية لحظة بلحظة وبما رصد بين دفتيه من أخبار سالف الليالي!

وهي تراكمات لأحاسيسي وآمالي وآلامي، وأخبار سكناتي وحركاتي، ومنظار لتجليات المستقبل، وسجل يصور ويحلل مزيج ذكرياتي، بكل حُلوَها ومرّها.

وبتوالي تلك الصفحات، ومنها القديم والحديث، تظهر على أكثرها وغير آثار البلى تكرار لتشوهات وشطب معينة في سطورها والكلمات، حيث اختفت منها أحرف أو زالت كلمات، ويظن أنها فقدت ما فيها أو مدلولها بعد أن غسلت أثار الحروف والكلمات أو تشوَّهت معالمها، على اثر عدوان كالعادة لتفجر دموعي انهمارها، فسالت فوق الصفحة وعلى الأسطر كطوفان، وهذه تحدث كثيرا وربما في ليال حالكة لم يضيء أعماقي بها قمر ولم أهتدي بها بوميض من آمالي، فكأنه أختلط سواد عينيّ ببياضها وهي تتخضب بحمرة قانية من

عنف فيضانات رحلات السهر الطويلة في ليالي القمر، وشاركتني فيها مشاعر الوحدة ولم يصاحبني بها تألق ابتسام النديم ولم يسر معي بين أطراف السماء إلا ظلمة تتوقد فيها النجوم حتى المتناهية البعد وهي باهتة تلهث للصمود، وتسيد حولي الصمت الموحش مما أحدث اضطرابا شبيها بما يحدث بتعكر صفاء السماء في ظلمة ليلة تلبدت بغيوم سوداء مثقلة بالمزن، أحاطت بأطرافها غيوم بيضاء خف حملها بيضاء انتشرت أو غلفتها غلالة غيوم وردية ثم تساقطت بأعذب دموعها على صفحة الأرض المشتاقة فاحتضنتها بأشواقها في الأعماق، وما أشبهها بتلبد صفاء قلبي بما ثقل من طبقات المشاعر العكرة، حتى تخضب حور العيون بالحمرة من البكاء والسهر في تلك الليلة الدامعة، وانسكبت أدمعا لم يعد بالإمكان كبحها!

وهذه حقيقة ما حدث لصفحاتي الملتهبة بأحزاني، والقلم ينوح بها على السطور، ورجعه يتردد أنينا في صمت الليل، وتكاثفت إثره في مقلتي سحب الدموع وانهمرت غزيرة، وكان أن اغتسلت أكثر الكلمات والحروف في تلك الصفحات المشتعلة بالأشواق، وأغرقتها الدموع حتى ابتردت حرارة الوجد، ولكن أذابت معها ما تحتها من رسم ومعالم للكلمات والحروف وتحللت واضمحلت ألوان الحبر!

وفي الغداة تعلن الصفحة النواح على كل فقيد لها من الكلمات والحروف، ولكن! ومع هذا لا أشعر بالقلق والحزن! فدوما أجد العزاء!

أجده في مكانها! وتماما في مكان الكلمة الفقيدة وفي بقاياها، فهي معالم لا تفنى! لأنها تظل على الدوام ملتهبة، تنبض بإحساس تلك الكلمة الخطير، وتبقى المشاعر فيها متوهجة مع الجواهر الثمينة اللامعة، التي انتزعتها تلك اللحظات من خزائني، فكل البقايا ببريقها أجده ما يزال يتأجج، ولم يبرح المكان، عصارات درّ مسكوبة، تشرق بحس ومشاعر تلك اللحظة وتظل تضيء ما بأعماق الكلمات الغامضة البائسة على صفحتي، وكما كانت قبل أن تغرقها سحب الدموع اليائسة الفارة الى صفحاتي من شقائي في تلك الليلة الظلماء!

لذا وعلى الدوام أظل أشعر بذاك الحس، وبالبريق، على الصفحة وفي المكان، الذي أجده ما يزال رطبا بما ارتوى من صدق أحاسيس ليلتي الملتهبة، وكأنها حدث الساعة أمامي! تتراقص فيها أفراحي، أو تنزف منها جراحي!

كما أشعر بها ومعها وبنفس السعادة أو الألم! الذي أسقط ذلك الدمع لحظات البكاء.

******

إنها الحرب يارجل

غارات التنين

عاد النعيق والعويل وللمرة الخامسة ينوح بعوائه المريع فيمزق السكون الذي خيم لوقت قصير بصمته الزائف، في ظلمة الشر المخيفة التي تزحف الآن في السماء، والأرض مازالت في سواد ليلها فوق مدينة الرياض، عاد يدوي في توالي للمرة الثانية خلال الثلاث ساعات فقط، وجثمت كدهر فوق صدور الأحياء من الناس وعلى كل الأحياء منذ توارت بقايا ضوء الخلفية الدموية للأفق من أشعة شمس غروب ذلك اليوم.

كان عواء الذعر المتواصل لأجهزة الإنذار الجديدة وصداها القوي يتردد ويتضاعف صراخه إلى زعيق مرعب في الفراغات المعتمة للشوارع والميادين الخالية ليرتطم بالعمارات والأبراج العالية ويعبر في الخواء الفسيح في الشوارع وبين المراكز وصالات العرض التجارية الخالية ويحوم في كل فراغ داخل المساحات الواسعة المغلقة والمفتوحة لمواقف السيارات سفلية أو علوية وفي مئات المخازن والمستودعات العملاقة لتتضخم ترددداته أخيرا كزعيق مردة

وغيلان يتكرر رجع صوتها بين الطبقات العليا للسماء ليرجف القلوب الضعيفة مع كل ضعيف مهتز فوق سطح المدينة!

لا يتواجد على الأرض في الشوارع هذه اللحظات سوى تحركات محدودة لسيارات أمنية ومتربصة في مواقعها وعربات إسعاف تنطلق بلا بهرجة ألوان بسرعات خاطفة في وجهات مختلفة، وكان سبق هذا الهدوء ومع بدء أجهزة الإنذار تحرك فجائي كعاصفة عشوائية في تحركات مرتبكة لكل متحرك في الطرقات، لأعداد من الناس تراكضوا رعبا وتنافسوا فيه في هلعهم بسياراتهم المدنية قبل أن يسارع أصحابها بالتوقف في أي مكان يحسبوه آمنا أو تركوها للبحث بعيدا عنها ومع الراكضين عن أقرب ساتر أو ملاذ يرونه قادرا على مقاومة اختراق صواريخ السكود وحمايتهم مما فيها من قوة تدميرية.

والحق هم يجهلون أن تلك التنانين الملتهبة والزاحفة اليهم في السماء هي في غير حاجة فعلية إلى أي اختراق للمواقع التي تصلها لأنها ببساطة تقوم بابتلاعها بالكامل أو اقتلاعها من أقوى أسسها في عمق الأرض، ولكن تظل أقوى عواصف الرعب في معظمها هي التي تحدثها وتؤججها أبواق أجهزة التلفزيون من قنوات الغاية والغوغائية بما تزرعه برامجها الكثيرة لترسخ في العقول والنفوس المحفزات والتأثر والتفاعل مع ما تطلقه من زوابع ارجاف من عشرات القنوات بمختلف اللغات الحية وغيرها، وتصبح مشاعر هؤلاء الناس عالية التحسس للمخاوف لشحنها بأنواع الشكوك والأوهام وبالقلق، والحقيقة أن مشاعر الخوف التي تصنعها كوكبة زاحفة بعشرات الآلاف من تلك الغيلان الجوية

المدمرة، وزلزلتها أثناء توجهها من خلال طبقات السحب وفي لهاث ينفث باللهب المتأجج بما تحمل فيها من الضغائن والأحقاد فيظن السامع بأنها قذائف نووية ستحدث تدميرا وتمزيقا وتفتيتا لكل الأماكن التي تحتها على الأرض، والحقيقة أن أحلك الظلمات هي التي تصنعها مواقف الفضائيات الظالمة بما تبث وتنفث من الأحقاد والتجهيل والرعب وتطلقها في الفضاء في زعيق وإرهاصات تخلق الفزع والخوف والوساوس وتتجاوز في هذا كل الأضرار التي ستسببها فعلا تلك البهائم الجوية الهائمة بغبائها للدمار وهو لا يقاس بما تصدره الأفواه العالية النهيق من أبواقها بما تحدثه من نشر الاشاعات بسموم تحقنها في أعماق الأنفس لتقوم بتمزيق خلايا الصمود المتماسكة في نفس وبدن الناس اذ تحدث كل هذه الفوضى قبل سقوط أحد الوحوش على الأرض، فتنشر البلبلة والولولة بأعلى صوت عما سوف تسببه هذه الصواريخ من أنواع الدمار الفظيعة بأخبار مختلطة بالفبركة عن أنواع الغازات السامة السرية وكأنهم اذكى من عرف كل التفاصيل عتها، وكيف ستملأ الأجواء بهذه الكيماويات الخانقة ومنها النوع الذي سيذيب اللحوم فقط –يشفيها– عن العظام أو فل التي ستحلل العظام نفسها فورا وتعيدها لصورها الأولية إما إلى ملح طعام وكبهارات من الصوديوم بالبوتاسيوم، أو كما وصلهم للتو كمعلومة جديدة بأن من الغازات ما سيحول العظام إلى رماد عضوي غني بالفوسفات وسيستخدم كأسمدة! وتقام لهذه الترهات برامج وحلقات وندوات وملتقيات تجمع أعداد من الملحوسين ومصابين بالاختلال كخبراء تتشدق بما تحمله الرؤوس الغبية

عن ما تحمله رؤوس الصواريخ القادمة خلال السحب من أهوال تدمير وجراثيم وبكتيريا مطورة كالتي أكتشفها هؤلاء المراسلون الأن من بوركينا فاسو عن حمل الصواريخ لغازات تخترق الجدران الإسمنتية وتحمل ما يظن بأنه سكاكين وسواطير فولاذية متخصصة في التقطيع وفرم الأحشاء الداخلية ويجب أن تنفذ أولا عبر فتحات الأنف ليصاب المواطن أولا بالخنف قبل أن يلقى الحتف!

ولأن فيهم من يقول: لابد! فهناك حتما الآذان الصاغية والإرادات المذعنة في آلاف وملايين من ضحايا أفلام الرعب والخيال والمعجبين بقنوات التهريج ممن يتغذى بما يقال فتلتصق المسامع بالأجهزة والبرامج، وأكثرهم مذعور ولكنهم أصبحوا يمتلكون براعة الإنصات للبحث عن الحلول في كيفية غلق أنوفهم عن الغازات لوقاية أرواحهم من العطب، فالشم دائما سلوك مشين وقاتل، وفي هذه الحرب هو فتاك سريع التدمير كما هو في السلم، إذ أن جرعة شم كبيرة أو دفعات شم صغيرة سيتبعها حتما تحلل سريع وبطيء للروح والنفس وأيضا لكامل الجسد، لهذا أشتد ارتفاع مستويات الخوف والهوس بين الناس وأدمنوا الإشاعات مع أقصى التأثر بالهواجس والوساوس في كل الروائح من حولهم، فأنوفهم تطورت وتحولت لأجهزة جس وتحسس للهواء لتحذير حاملها ولتجنب مخاطر الشم والاستنشاق، فهناك خوف من أي استنشاق خاطئ لنسمة رائعة باردة يكتشف متأخرا بأنها نسمة دموية مموهة تسللت من أسفل باب السطح أو تسربت من شق صغير أو فتحة لم تلاحظ في أغطية النافذة ويحتمل من أعطية فتحة جهاز التكييف، وانتشر خوف من غازات فيها مواد ذكية للشم

تنجح في تجاوز كل الاحتياطات الأمنية وتخترق تمديدات الأغطية البلاستيكية لعشرات الكيلو مترات من لفات الشرائط اللاصقة للشبكة العنكبوتية التي تتوزع في كل أرجاء المنزل على جميع نوافذ الغرف وفي الممرات والمداخل والمخارج، ويعرف بأنها شبكة صغرى وجزء من الشبكات المنتشرة في بيوت الرياض وكل مدن وقرى أرض الدولة كشبكة عظمى!

وهكذا أصبحت المخاوف من الغازات الكيميائية والجرثومية والنووية في مستوى الحدث والحس الغير متزن والمهيمن على أنظمة الإحساس وتتطور منه قدرتهم الداخلية لتتجاوز إمكانات أجهزة القياس والجس الحديثة لأخطار الظواهر الطبيعية للضغط والحرارة والزلازل لتفوقهم بالاستمرار في الخضوع للممارسات الإعلامية ووقوعهم تحت الضغوط والتعرض الدائم لارتعاش الأطراف والمفاصل وتجاوزهم لمعدلات قياس الضغط وخفقات القلب وارتجاف الضلوع.

ومنه يتبين ما كان يحدث للناس داخل البيوت وخارجها من انتكاسات نفسية، وكان من أوائل الضحايا المتأثرة بهذه الحالة وعانى منها هم جميع الأطفال النشطون والمحبون للعب والمولعين بكثرة الحركة الدائمة وهذه تعتبر حاجة جسدية طبيعية لديهم، فقد تعرض كل هؤلاء للشعور بالتعسف وللاضطهاد ومنها للاكتئاب الحاد مع تضاعف إصابتهم بالملل كداء نفسي نتيجة الكبت

القسري بسبب فرض الجمود والصمت والسكون ولفترات طويلة، ومع ما يتعرضون له من عقوبات ورعب أثناء تلك الفترات!

إذ كان يحدث وبدافع من الحاجة الجسدية الطبيعية وفجأة لا شعورية ينطلق الطفل بعفويته راكضا ويفتح باب الغرفة أو الملجأ الاختياري الآمن للأسرة فيتفجر السخط مع الملل الدفين لدى الكبار المأزومة والمضغوطة نفسيا فيوجهوا نحو الطفل صرخة ضخمة تشاركت فيها أصوات عشرات المحتجزين والمحتجين فينطلق رعبهم ومعا في صوت واحد وتحاصر الطفل خبراتهم بالذعر التلفزيوني المتراكم:

- *صك الباب ! صك البـاب!*
- *صكه يا حيـوان!*
- *صكه لا يدخل علينا الغـاز!*
- *انت بتذبحنا يا مجرم؟*
- ....

ومن أجل هذا وفي هذا فقد سقط الطفل المسكين هلعا وربما أغمي عليه رعبا من غارة أهله الصوتية كزلازل متلاحقة ولا شك أنه توقع فعلا تعرضهم لغارة حقيقية من صواريخ سكود التي سمع عنها وكانت بانتظاره ليفتح للباب لها، فأحس بأنه سحق!

ومن أجل مثل هذا حدث هذا في جانب آخر غير بعيد عن وسط المدينة، وكان هو الآخر يعاني من نهيق تلك الأصوات ونعيقها والزعيق خارج المكتب حتى أعالي السماء، وهو لايزال يحاول جاهدا التمكن من سماع المتحدث في الطرف الآخر من الهاتف، فأستمر يغلق أحد أذنيه مع جهود أخرى للنجاح في إلصاق أذنه جيدا بسماعة الهاتف ليسمع بوضوح ما يقول محدثه، ويبدو أخيرا أن "أبو طارق" فضل إنهاء المكالمة بعد أن تمكن من إيصال كل ما يريد قوله للمتلقي "أبو رزق" حول خطة وبرنامج العمل لهذه الليلة، وأنه نجح في تبليغه بأهم النقاط الرئيسية والشروط مع كافة الترتيبات التي من أجلها أجري هذا الحوار وقال في نهايته:

- يا أبو رزق، افهم! أنا قلت خلاص! هات الثلاثمية ألف الكاش!

وتكتب المبالغ الباقية في شيكات زي ما اتفقنا!

الشيك الأول بمبلغ خمسمئة ألف وبالتاريخ المحدد

بيوم تسليم البضاعة في العقد!

ويكتب مبلغ الأربعمئة ألف الباقية في الشيك الثاني

وفي نفس التاريخ كمان ..

ونبه أبو طارق أبو رزق بمعلومة سبق له العلم بها:

- لكن انتبه! كل الشيكات تكتب باسمي أنا كمفوض ومعتمد عن الطرف البائع!

وأظن عندك نص الاسم الكامل اللي كتبته لك!

وتوقف ليحذره بنبرات جادة للتوضيح بالضغط على كل كلمة:

- هاه! انتبه! ذكرهم باسمك يكتب في نهاية العقود:

كوسيط تجاري توافقي وشاهد بين الطرفين!

ثم زاد في تأكيد تحذيره وطلبه لكن بصوت أشد لهجة وبالأشد جدية:

- وكمان انتبه! لو ما جبت لي أنا مع الثلاثمئة ألف الكاش العروسة!

وطبعا تعرف العروسة، اللي على بالك!

وتدارك مصححا في الأمر وفي حزم:

- والا أقول لك خليها عروستين! لكن!

اذا ما جات في ساعتها .. قسما!

قسما! لأرجعك من البوابة الخارجية. أرجعك؟ ليه؟

رايح أخلي الأمن يحجزوك للصباح وبعدها لك عندي

أكثر من حل مناسب خلاص فهمت؟

وأعقب ذلك أعادة سريعة لترتيبات المخطط السابق لتنفيذ العملية بمراجعة عامة لأهم المتطلبات وزمن التحرك:

- اسمع! وفتح مخك! تتصل بي الساعة وحدة بالضبط وانت تواجه البوابة من بعيد ومعاك الشاحنة واثنين

أو ثلاثة بالكثير للتحميل والتنزيل! ورايح أعطي

الأوامر بالدخول ويقابلك شخص على البوابة مع

الحراس وهو من طرفي وتدخلوا لكن ..

وتلا عليه آخر التفاصيل بتمهل وبوضوح ربما لأهميتها ويقطع الاتصال على عجل متخلصا من أي معاناة مزعجة بإعطائه الفرصة لتكرار الكلام واستعراض ذكائه:

- وبالاقتراب من المكان تتوقف على بعد عشرين متر وتخلي مندوب الشركة مع العمال تحت تصرف المكلف بتوصيلهم للمستودعات!

وتجي لي انت فورا في المكتب ومعاك المطلوبات

كاملة وهي العقود وأوراق التسليم والاستلام والأهم!

طبعا العرايس! يا ويلك! ويا سواد ليلك لو ما...!

وكان تراجع عن إغلاق الهاتف ليضيف التحذير الأخير:

- أبو رزق! خليك صاحي! بلاش حركات الذكاوة حقتك والخروج عن المسارات والحدود، فاهم! يلاه، أشوفك الساعة واحدة بالتمام، وسلام!

بعد قطع الاتصال مع المستقبل الآخر تجمدت سماعة الهاتف مع يد وجسم حاملها أبو رزق على الطرف الثاني، وظل هذا الوضع مستمرا للحظات، وربما صدمته دهشة الموقف الذي فاق جميع قدراته وتصوراته على التسليم بمصداقية حدوث ذلك فعلا!

فهو أضخم وأثقل من أعظم آماله وأحلامه وتتجاوز استيعاب كل مداركه، وربما صدق شيء من هذا ولكن إحساسه بتقبل بعظم الفرحة كانت أكبر، وبدأ بمحاولة استرجاع بالعودة بذاكرته لبدايات الحدث وراح يراجع ويمحص في سلسلة التفاصيل أيامه الماضية حتى وصل لآخر كلمات سمعها بالهاتف من السيد أبو طارق واستعراضه ما دار في النتائج والتعليمات وما صاحبها ليتأكد له مصداقية الخبر!

فأنبجس بداخله ما يشبه الدبيب وبدأ يسري وينتشر من قلبه الى سائر أجزاء جسمه، كسريان الروح بالحياة وهي تتصاعد في أوردة دمه وتحرك أطرافه بانبساط تدريجي لعضلات وجهه ثم تمدد ببوادر ابتسامة مترددة وكأنها تتابع حديث أفكاره بوضعها إشارات "صح" على كل جزئية كان راجعها وتخطاها بنجاح لتنفجر أخيرا في ضحكة صارخة بملء فمه وهو يطوح بسماعة الهاتف من يده بعيدا وتتوالى الضحكات الأقرب للهستيريا في صرخات بالانتصار مصاحبة صوته الذي أخذ يتدفق بعبارات بالسعادة:

- جاك السعد! والله يا بو رزق! الله! الله!

وبتشوف طبقات الألوف ولأول مرة في حياتك

الخايسة وطول الخمسين سنة اللي ضاعت ..

وبحماس وكأنه يرى بعينيه المشهد:

- وبتشوف وبعيونك الملايين! التي كنت بس تسمع عنها في بيانات الميزانية.

وبتحطها في كراتين والا بخياش بصل! يا هـوه!

قالها وهز يهز قبضتيه في الهواء بقوة وبالحركة التي رأى ابنه رزق يؤديها يوما تعبيرا عن انتصاره في اللعب، وبابتسامة عريضة راح يفرك كفيه بقوة وبنشوة والظن بأنه يتخيل اللحظة قبضه أكداس الرزم النقدية.

وهذه العملية هي الرقم الثاني وقد يقفز مردودها هذه المرة إلى أكثر من ثلاثمئة ألف ريال، **متجاوزة العملية البكر العشوائية والتي وقف فيها متفرجا بغباء بينما تتناهشها الأنياب الكبيرة والمخالب الكثيرة أمام عينيه ولم تبقي له إلا فتات في لقمة صغيرة لم تكتمل فيها التسعة آلاف** ريال، **بينما تجاوزت لقمة أصغرهم المئة ألف!**

ولكنه لم يهتم للأمر طويلا، ولم يقف على سلبيات تلك النقطة باكيا، بل فرح بذلك المبلغ الذي أعتبره كبيرا جدا بالنسبة اليه كالشخص المسمى أبو رزق أو يعود الأمر لشدة فراسته المتعقلة وعلمه بأنها مجرد أول لقمة في وجبة صغيرة كفاتحة للشهية ليزدرد في القادم من القوائم المتتالية من المفاطيح الكاملة من

الخراف وحاشي الإبل، ومن يدري؟ ربما يتحول الى حوت ويبتلع أحياء المحيط!

وبالفعل أخذ يرسم الخطط لوجباته الساخنة القادمة ويعد لها الأماكن والأزمنة المحددة، حتى تخيل هذا وأخذ يفرك كفيه ويشمر عن ساعديه ليبدأ بالفري!

فما عليه سوى التفكير بذكاء مع مجازفة مدروسة في قادم العمليات، وبطرق جديدة لتنفيذ مكاسب كبيرة جدا، ولا يلزمه سوى أن يبقي نشاط مخه في وضع التشغيل على الدوام لاستغلال كل الظروف المواتية لتضخيم نسب عمولته في العمليات القادمة، كي يتم إجراء الإنعاش للرصيد الذي أصبح متيبسا خلال احتضار طويل قارب ربع قرن في معاناة مزمنة اسمها سوء التغذية وشدة الجفاف، وفقد أبو رزق أي أمل في مرتب شحيح يظل يطلب الدعم في مطلع كل شهر جديد بالسلف المتكررة بما يقارب حجمة وأحيانا تتجاوزه الى الضعف، ويظل يسددها من مكسبه الضئيل بالعمل عصرا كدلال لكل قديم وهي مهنة السمسار في أطلال الحراج شبة المهجور وأصبح يباع فيه كل ما لا يصلح للاقتناء أو الاستخدام للإنسان ولا للحيوان وربما تتأفف عنه أكثر الحشرات لصالح العث والديدان وأصناف البكتيريا.

وتجددت أخيرا آماله وعاد نشاط أحلامه الطموحة بالثراء الفاحش منذ أصبح في تلك الليلة شريكا كاملا في مثلث جديد من المستفيدين في لعبة جديدة أبتكرها ولعدم خبرته أستعان بالكثيرين لتنفيذها وهم من قاموا باستبعاده بذكاء للاستحواذ الكبار على الحصص الكبيرة ودخل البقية في صراعات نسب أخذ

فيها اللاعبون أشكال رقمية متضاعفة وظلت تتضاعف لتهافت الباحثين عن الفرص من كل الأبواب ليجد نفسه في آخر الطوابير.

ولكنه استفاد من تلك تجربته الأولى فعلا ليستخدم الدهاء والسرية لاقتناص الشخص الأقوى فقط في الطرف البائع والطرف المشتري ومعا، ويتطلب هذا فرض السرية لحماية أنفسهم وبالتالي الحماية لكل العملية وله كوسيط بين هذين الطرفين، وبذلك تكون المكاسب الأقوى بين الشركاء الثلاثة!

وبهذه الأفكار والمجهودات تمكن فعلا من تسمين حصته بمبلغ أرعبه اذ لم يتحقق له في الواقع ولطوال ماضي حياته، فلم يسبق أن أمسكت يداه بمثله الا في أحلامه، وان وجد نفسه أيضا مظلوما فيها بالقسمة!

أما في تجربته الحالية وان أعتبرها تجربة نجاحها نسبي لحصوله إجمالا على الحصة المقاربة للمبلغ الذي سيحصل عليه الحوت الضخم أبو طارق وهو الرجل الكبير الثاني في منصبه ولكنه من يتولى إدارة كل العمل بهذا الشأن ويحمل جميع مسؤوليات الرجل الأول كالطرف البائع، وتبلغ حصة أبو طارق أربعمئة ألف، أما حصة أبو رزق فتبلغ المئتين والخمسين ألف، ولكنه يخطط منذ الآن فعلا ويأمل بتضخيم حصته في العملية القادمة بنسبة مكافئة تماما لحصة الرأس الأكبر في هذا المثلث والذي يتلذذ وحيدا بالهبرة الكبيرة ومن ألذ الأجزاء، وان قلل الآن من أهمية هذا التقسيم الغير متوازن على اعتبار أن السيد أبو فهد هو رئيس أبو طارق المباشر وهو من يقدم الدعم والتسهيلات

اللوجستية وعن بعد، ولكنه أعطى أبو طارق الحرية الكاملة في التصرف بالصفقات دون الرجوع اليه وتدار الأمور وكأنه مغمض لعينيه.

وهنا وفجأة عاد انتباه أبو رزق بخروجه القسري من انجرافه المعتاد في تيارات أحلامه المتدفقة وتفجرها في طموحاته القديمة ومن أعماق معاناته من أجل الحصول على الثروة، وبنظره إلى الساعة في رعب فجحظت عيناه لبرهة حتى تمكن من إعادة عقله لقيم الواقع الزمني الراهن والحقيقي وتأكد بأن الوقت لايزال مبكرا ومطمئنا، فلديه ما يقارب الساعة والنصف وهي كافية جدا لإنهاء كل المتطلبات متى زاد في سرعة التنفيذ فسيتوفر له المزيد من الوقت، فمعظم المهام والالتزامات قام بالجزء الأكبر منها ومسبقا ولم يتبق سوى ذهابه للشركة العميل وهي الزبون المشتري والطرف الثاني في عقد الصفقة، وهناك سيلتقي بمندوب الشركة وممثلها المفوض.

ابتسم ابو رزق وهو يتذكر الصعوبات التي واجته في ملاحقة السيد جمال غنيم ممثل الشركة المالي وكم عانى حتى أقحم نفسه بصداقته وكسب ثقته ليعرض عليه مشروعه، ومنها أصبح الذراع السرية التي أستخدمها لاختيار بقية الشركاء من داخل الشركة في توصيل الفكرة وإثارة أطماعهم وبإسالة لعابهم للمكاسب الكبيرة، وبذا يكون لأبو رزق أيضا شراكة مزدوجة في مكاسب الطرفين، فله هنا أيضا حصة سرية خاصة في هذه الشركة باعتباره صاحب الفكرة ووسيط للشركة مع أصحاب البضاعة ولن تكون أقل من مئة وخمسين أو مئتي ألف وهذه لا يعرف عنها السيد أبو طارق شيئا، وسيترافق الصديقان إلى موقع الطرف

الأول كمسؤولين مكلفين لتسلم البضاعة وتبادل العقود الموقعة وتسليم مبلغ الشراء بالطرق المتفق عليها.

ويبدو أن العملية بكاملها وخلفيتها تجري ما بين الأطراف في سرية فأبو رزق اللاعب الجوكر في هذا الغموض، فمن جهة هي معلنة في محيطها ولكن هناك تعتيم مدروس على ما فيها من احتيال ومن جهة أخرى تجري الأمور في تكتم شديد وسرية قصوى لخطورة منتج العملية! وعراب هذه الصفقات خلفه دهاء المكنى بأبو رزق!

فاسمه الذي فجر فيه طموح غير محدود يشحنه بطمع شرس في تملك الأموال الكثيرة التي تطارده في أحلامه بشغف بلا توقف ولاسيما في الصحو، وقد لا يصرح بهذه الأماني ويتحفظ عن التحدث بهذا الحب الذي غرسته في أعماقه أقسى ظروف مجمل حياته البائسة وظلت قابعة قسرا تحت أقصى مستويات الحاجة والفقر مع تعذبه بتأنيب طموحاته التي يراها كل يوم تتحطم أمامه وفي نفسه منذ وجد نفسه فجأة يتيما في حي فقير وبيت خرب ومنه خرج وظل يجاهد بالبحث عن فرص جمع المال ومع فشله الدائم وسوء حظوظه رضي أخيرا بالعمل كفراش ومراسل في مكاتب وزارة الصحة، وحتى أنه تزوج في مشروع فاشل نحو الثرة والغنى.

وأخيرا بعد عدد لا يحصى من المغامرات الفاشلة قنع بإيقاف مجهوداته وليس تفكيره، لأن ولعه بالغنى وحب المال مغروس في أعماقه وما توقفه الظاهري والمؤقت الا بسبب محاولاته الفاشلة والتي لم يتحطم معها توقد عزيمته وآماله

الدفينة، فتجبره الحال مع كراهيته العظيمة لحياة الفقر على الاستمرار في محاولاته لقتل ودفن الفقر وأثره على حياته في حالة من الهوس لإخفائه بالتستر وراء ما يقوله ويفعله، وفيما يلبسه من الثياب الفاخرة وبما يضعه من العطور الباهظة الثمن رغم أنها في كل شهر تبتلع مرتبه الصغير مع ما يستدينه من الآخرين.

حتى تبسم له الحظ أخيرا في مغامرة منذ أسابيع ونال فيها مبلغا كاد يؤدي به للجنون، ولكن هذا ملأه من جديد بالحماس للمغامرة الثانية وهي التي سينال في نهايتها وخلال هذه الأسابيع بما يقارب الثلاثمئة ألف وهذه أعظم ثروة هائلة في حياته ولا يعلم إن كانت ستفقده عقله حقا أو ستدفعه للبحث عن المليون الأول ونحو الملاين!

من يدري؟

ولكن هناك روائح غير جيدة تظهر مع الغموض حول مشروع ابو رزق وشركائه فيه، بما تشير عن احتمال الازدواجية في عقود الصفقة الأخيرة وربما هي مفبركة وداخليا لصالح مسؤولين في الشركة كطرف مشتري!

فالبضاعة سجلت مدفوعة بالكامل في عقد الشراء بقيمة مليونين وأربعمئة ألف! وهو تقريبا السعر الطبيعي وما يوازي سعر أي بضاعة مثيلة في الأسواق العالمية!

وهنا لا يعتبر هناك أي تزوير وتلاعب وسرقة وأن عقد الشراء صحيح وسليم، فأين الخطأ أو الفبركة؟

يتضح هذا في العقد الخفي والمكتوب بين الطرفين والوسيط، وفيه المبلغ الحقيقي المستلم من الطرف الأول البائع لم يتجاوز المليون ومئتا ألف بالتمام! وهو ينخفض عن قيمتها في السوق بنفس مقدار المبلغ لسبب مجهول! فيكون المبلغ الذي رصد وصرف من خزينة الشركة ودفع كاملا بموجب العقد المصرح في الشركة لم يستلم منه سوى النصف والباقي اختفى وهو مبلغ كبير ولم يغادر الشركة ولن يعود لخزينة الشركة أبدا! لأنه تحول إلى محاصصة وتبخر بسرعة بين مسؤولي الشركة الخفيين.

وبالعودة لصحوة ابو رزق السابقة وخروجه من تيارات أحلامه العنيفة بمحاولته استعادة ما تسرب من قدراته على التركيز والعودة بالاستعانة بذاكرته حتى وصل لاستعادة الى آخر ما دار بينه وبين أبو طارق على الهاتف وأدرك بأنها ليست من أحلامه وأنها حقيقة وسيتسلم الليلة ثلاثمائة ألف ريال نقدا مع الشيكات التي تحمل المبالغ المكملة لقيمة الصفقة التي تصل الى المليون ومئتي ألف ريال، وعتدها تأكد بأنه واقع حقيقي وخارج عن التوهم والتخيل وبأنه وصل فعلا للانتباه والوعي الكامل بنفسه من جديد، ولكنه صفع جبينه براحة يده بقوة ونهض من وقفا وأجرى عدد من حركات الإحماء والتنشيط بذراعيه ويهدف منها الإسراع بإبعاد أفكاره عن نشاطها الغير منضبط أو المجنون، وأخذ يدير بصره فيما حوله في جوانب الغرفة ثم تبسم وجلس على الكرسي واستعاد حساباته بما يحتاج اليه والحقيبة اليدوية موجودة أمامه الآن، وجوفها حامل بمبلغ الثلاثمئة ألف نقدا ومغلفي الشيكات ولم ينس توفر المساحة الآمنة

لاحتضان العروستين! وبالتأكيد هما أهم شروط إتمام الصفقة بسلام، وان واجه بالأمس في سبيل الحصول عليها مخاوف كبيرة ومخاطر كثيرة في البحث عنهما ورفع نظره الى حيث يرى النتيجة في صندوق كرتوني متوسط الحجم يقبع أمامه فوق سطح المكتب وتظهر بأعلاه رقاب ثلاث من تلك العرائس المذكورة، فأحس بالارتياح لينهض واقفا من جديد والسعادة تملأ شدقيه بابتسامة عريضة وبدأ يفرك يديه مرات وبقوة ليتدفق دمه بشحنات حماس جديدة وقال محدثا نقسه:

- وذا الحين خلاص! ما باقي غير الحبيب جمال غنيم والشاحنة تتبعني للمستودع لتحميل ونقل البضاعة

وفرقع بأصابع يده:

- وأكيد أنها جاهزة وتنتظرني في مكان عند بوابة الشركة مع الحبيب جمال وفيها طاقم التحميل ..

وهتف في غرور وشموخ:

- طبعا! لازم يكونوا بانتظار المخ

السيد الوسيط التجاري!

أستوقفه المسمى مرغما بفكرة خطرت له في التو، فوجد في الاسم إحساسا راقيا ومغريا بإضافته بجوار اسمه! ورفع رأسه مع صدره في تباهي متخيلا فيه تناقل الناس لاسمه مرددين: الوسيط التجاري السيد جازع بن رزق الله.

وهو المكنى بأبو رزق الله وتدليلا اشتهر بأبو رزق، وفي هذه الفكرة ما جعله يرفع بصره مستنجدا بأفكاره لإجراء مقارنة سريعة بين مسماه الوظيفي المأمول أطلاقه عليه بقية الصفقات وباقي الحياة مع مسمى حالي لوظيفة شخص يعرفه جيدا كمعرفته لنفسه، عرف بالفراش والمحرج ليهتف قائلا:

- ياه! مسمى حلو وكبير! لمنصب مهم جدا!

وبعدين! والله الفرق شاسع عن مراسل أو فراش!

أو أبو رزق الدلال، لكن؟

وهرب فورا من أضافة أي تعليق أو مزيد من التصور حول اسمه وما كان أقترن به وراح يسأل نفسه بصوت مسموع ليلجأ للواقع وما ينتظره من مجهودات:

- عساهم بس جهزوا ملف عقود شراء البضاعة مع التواقيع المطلوبة حتى يوقعه أبو طارق عن المدير العام، ونطفي كل الأنوار عن هذي المسألة ..

وأضاف بينما يجهز حقيبته بسرعة للذهاب:

- ورايح أولعها بأمر الله في مكان ثاني، في ليالي ..

فيها أطراف وشحنات جديدة

ضحك ابو رزق في غرور وقد أنهى كل مهامه للانطلاق نحو الهدف وقلبه يتراقص فرحا حين تراءت له لحظة تسلم جازع بن رزق الله نصيبه من أبو طارق ثم زاغ في خبث عن مجرد التفكير في نصيبه الآخر في الشركة خوفا من تسربها وحرص ألا يتبقى عنها في ملامحه ما قد يقرأه أبو طارق! ولكنه تذكر مرغما معاناته الأولى حتى أوجد الشركاء السريين في إدارة المشاريع والمشتريات والمالية في الشركة وهم من روج للمشروع في مجلس إدارة الشركة ودعموه حتى فتحت لهم أبواب الخزينة ثم كفاحه معهم لنيل أكبر حصة حتى أكتشف أعداد أخرى كبيرة من المنتسبين في المشاركة وعرف شراسة ملتهمي الهبرات في الشركة ورضي مرغما بما قسم له معهم، ولكن عليه العمل في المرات القادمة أن يحرص على تسمين حصته في العقود التالية، والحق أنه حصل على مبلغ لابأس به بين ذاك الزحام ومقداره بلغ مئتا ألف بالتمام وهو ما جعله يصاب برعب داخلي خشية فضح أمر عمولته هذه وكوسيط مزدوج وأعظم مخاوفه هي من السيد أبو طارق! فأصبح يهرب من أي تفكير فيها حتى بينه وبين نفسه!

وبهذا يكون حسابيا مجموع ما سيحصل عليه من الطرفين وبحسبة سريعة فنجده متساويا مع الرأس الثاني في المثلث وربما تجاوزه اذ وصل إلى أربعمئة وخمسين ألفا، مما جعله فعلا يفكر بإخفاء أحد المستفيدين مستقبلا وتمنى النجاح في الغاء ومحو أبو طارق بالكلية!

- واو!!

وهتف بقوة حين تأكد من حساباته وقذف بالغترة مع العقال بعيدا عن رأسه وهو يتخيل رزمها أمامه وان لم ير مثلها أبدا:

- *أووووووه*

قالها ثم قذف بكل الأحلام بعيدا من رأسه ونهض عن الكرسي وعلى ملامحه عودة وتجدد الحماس والهمة قائلا لنفسه والآن يجب عليه أن يغادر وينهي الأمور المتبقية عمليا بعد أن أعدها ورتب لها وأصبحت جاهزة ذهنيا وحسابيا، وصفق بيديه صفقات رشيقة وفي ثوان حام بأكثر من مكان في الغرفة وحولها برشاقة وكأنه يتحرك قفزا وأنتهى بوقفة متأملة أخيرة بجوار حافة المكتب نظر فيها للحقيبة المنتظرة على سطحه ثم بابتسامة مشرقة جذبها بهدوء ليجهزها لتقوم بما يخصها، وفتحها ومد يده تستدنى الصندوق الكرتوني المجاور للحقيبة وأنتزع من داخله أحد العرائس كما أسماها السيد أبو طارق ولم تكن سوى زجاجة من الخمر ورفعها عاليا بيده وراحت عيناه تستقبل منها أضواء بالوان شفافة تخترق صفاء السائل الناري والزجاج، فتبسم بنظرات عينيه وشفتيه وهز رأسه بلطف ربما إعجابا من أمور جالت في رأسه لحظتها، ثم أرقد العروس في مخدعها داخل الحقيبة بوداعة كطفلة ثم بدأ عليه التردد كثيرا وهو ينظر للأخرى والأغلب طمعا ولكن طارده الخوف من أبو طارق وصرامة توعده وجعله ينساق

لينتشل الزجاجة الثانية مرغما ويضجعها بجوار أختها في المخدع المعد وهو يقول بصوت عال:

- أنا أشهد انك يا بو طارق بتصير عريس!

وعريس محظوظ لهالزينات!

عروستين يا اللعين في ليلة وحدة؟

كأن العبارة أعادته لما سبق وفكر فيه حينما نظر للضوء والألوان في الزجاجة، فقد تخيل بأنه يراها ممتلئة بالدماء؟ وليتخلص من هجوم أفكاره بما قد يحدثه توالد خياله بمشاعر التشاؤم أخذ يخاطب العرائس النائمة عن فضلهن لو تمت استمالة وكسب نائب المدير العام ولمدير إدارة المشاريع السيد أبو طارق وبالتالي تصبح سبب إنجاح مخططاته بمشروعه الذي سبق أن واجه في سبيل تحقيقه الذل والتهكم ومعاناة قاسية من الهموم والمخاطر وراح يقول:

- أنا! ومهما حصل وصار ماني رايح أنسى

معروفكن، وصحيح أنا تعبت ركض، لكن! بيصير

لي تعبكن راحة ومن الليلة!

ويستمر في مخاطبة زجاجتي الخمر:

- بصراحة! أنتن صاحبات الفضل بتوصيلكن لي

للهدف وأخذ اللي استحق مع هذولا الناس!

لكن! اللي تأكد لي: انه أمثالكن وراء كل نجاح

ووراء كل صفقة فساد عروس ترقص على موائدها

ولا يعرف قطعا ما إذا كان مجرد رؤية الخمور واحتضانها يمكن أن يجلب لحاملها الشر وأيضا ما يصيبه بما يشبه اللوثة وبالهذيان وعدم الحرص والاتزان في الكلام كهذه الحالة التي دخل فيها أبو رزق مع إطالة نظره وحواره مع العرائس، وأخذ يسترسل بالكلام وكأنه في هلوسة أو يدلي باعترافه بالخطيئة ندما:

- **ايه! ما دام فيه ناس لامن شافوكن! وسهروا معكن! وطالت عاشرتكن، وكل الليالي في صحبتكن، أكيد! أكيد وبكل السهولة يضيع دينهم مثل عقولهم ..**

وأكيد، أكيد بتضيع عندهم كل أمانة، يبيعون بعدها

أكبر وأصغر الأمانات وأولها أنفسهم وثم كل شيء!

ثم في مشهد تمثيلي يحاكي حالة الموقف:

- **وما هو لي أنا بس يا حبيباتي! لي ولغيري وبكل مكان وكل زمان! وما هو بس بضاعة في مستودع فاسدة وبس! هي ومثلها بيعة وطن وأهل فوق البيعة**

ذعر لسماعه ما قال ولكن بصوت غير صوته أو خرج اليه صداه غريبا:

- أهب! من انت؟ كن أحد غيري يحكي!

والا أنا؟

قال ذلك وألتفت ابو رزق مرارا لليمين وللشمال فلم يجد أحد! وهو في شك مما سمع ومصدر الصوت، وان كان في حلم أو أخترقه الصوت من الخارج أو خرج اليه من الداخل! وليستعيد شجاعته تجاهل وتابع:

- وش اللي قلته التو؟

أظني سكرت من شوفة الخمر وصار قلبي

يخطرف بالحكي!

وظني الأكيد انه في الخمر شيطان، ويحسبني

شربت خمر!

يخسي ماني براعيه، ما هو يمكن سكرت بعيوني

ول عليك إبليس!

******

السيد والقنفذ

حتى الخمس دقائق الأخيرة قبل تمام الساعة الواحدة ليلا كانت تقف في نفس المكان الغير ملفت وبعيد عن بوابة السور سيارة شحن متوسطة صغيرة وانيت داتسون غمارتين وخلفها شاحنة مقفلة كبيرة الحجم في انتظار الساعة المحددة، وبتوتر شديد ظل أبو رزق ينقل بصره بين ساعة السيارة على "الطبلون" وساعة شاشة هاتفه المحمول يرافقه المندوب الموفد من شركته لاستلام شحنة البضائع وتبادل مستندات وعقود المبايعة بغد توقيعها من إدارة الشركة البائعة، وفجأة أنتفض أبو رزق بعنف لتسري موجات الارتجاج في كبينة السيارة وجميع ما يتصل بها مع المندوب جمال غنيم الرقيق المشاعر وكثير المخاوف وظن بأنهم يتعرضون لهجوم ما أو مداهمة من رجال الأمن وهو يعاني مسبقا من وطأة هذه الأفكار بعد تورطه التام وتبين أن أبو رزق واجه كابوسا لحظة جذبه النعاس مع وقوع نظره على مؤشرات عقارب الساعة المتجاوزة دقيقتان عن الواحدة فأرتج من رعبه المختزن وسارع بالبحث حوله عن هاتفه المحمول فأبتسم أبو رزق أنه يمسك بما يبحث عنه في يده!

وبعد محاولات فاشلة تمكن من طلب الرقم وتحدث بحماس ودون تركيز قائلا وفي ارتباك:

- أنا ابو طارق! لا أبو رزق يا أبو طارق، وأنا .. الساعة وحدة يسعد الله أمساك والله بالخير يا ..

يا عمي أبو طارق آسف! أنا .. لحظة ...

وتوقف لثواني يستجمع فيها شتات عقله وانتظام نبضاته وأنفاسه ثم عاد في أشد تركيز وهدوء:

- **معليش وآسف جدا يا سيدي ابو طارق!**

أنا ابو رزق! وأنا جاهز!

هاه؟ أتوجه لكم بأمان؟

بعد فترة من صمته على المحمول كان تلقى خلالها ما تلقى ثم وبصمت أغلق الهاتف، وعلى عجل أدار محرك سيارته وطلب ذلك من البقية وتحرك الجميع باتجاه البوابة الكبيرة وهي تتوسط امتداد سور عالي الارتفاع ومترامي الأطراف مع شدة الحراسة، وتوقف وخلفه الشاحنة أمام حاجز الاعتراض الحديدي، فتقدم نحوه أحد رجال الأمن والحراسة وأخذ يتفحص الأوراق والإثباتات التي جهزها ابو رزق وحام حول الشاحنتين متفقدا ثم وجه إشارة لرفع الحاجز وتجاوزته السيارتان، وكما أمر ابو طارق توقفتا بعد عدة أمتار وركب المندوب في شاحنة التحميل التي تحركت خلف سيارة من نوع الجيب فيها ربما شخصان واتجهوا إلى حيث المستودعات بينما أنحرف عنهم جازع بن رزق وأوقف سيارته أسفل المبنى الكبير والغير بعيد عن المدخل ويعرفه جيدا كما يعلم من ينتظره في مكتب نائب المدير الاداري والمسؤول المناوب!

طرق جازع الباب وسمع الإذن له بالدخول وأندفع بحماس مع اللياقة متجها للمكتب الكبير المقابل وقال لمن يجلس عليه في احترام بالغ:

- السلام عليكم! مساكم الله بكل الخير

يا طويل العمر!

كان دخل يحمل الحقيبة الثقيلة وزنا ومحتوى ووقف بها أمام المكتب ورفع أبو طارق رأسه وعينيه عن الأوراق وتوجه بالنظر نحو أبو رزق وأبتسم وهو ينهض مرحبا به:

- هلا والله يا أبو رزق! وأبو الخير كله!

انت على اسمك والله يا أبو الرزق!

وعسى معاك الخير كله الليلة ومن كل لون

لم يرغب ابو رزق بتوقف الضحك على هذه النكتة العارضة وبدت له أكثر أهمية لما سمعه كاعتراف بفضله على هذا السيد الرفيع المكانة! حتى وان قالها مغلقة بالضحك فهو يرى فيها ما يؤكد بانه لا يبتعد عن الحقيقة! وفي المقابل بدا أن هذه المشاعر قد قرأت تماما بتوارد الخواطر أو بأي طريقة كما ظهر من تأثيرات غريبة على وجه أبو طارق ونظراته الثاقبة ترصد ابو رزق خلال تعمقه في أمانيه تلك وتبين أنه من النوع السهل القراءة وهو لا يحسن مهارة إخفاء ما يشعر ويفكر فيه وخصوصا أنه يواجه الرجل الداهية والخبير المتمرس في تطبيق

ما درسه في علوم الإنسان النفسية والاجتماعية وفي دراساته التخصصية في مناهج القانون صقلت موهبته الفطرية في قراءة ظواهر الإنسان للوصول الى أعماقه وهذا ربما ما دمر ترسانته وتحويله لعمل إداري في مستودعات.

وبانتهاء الضحكة ونظرته أستأنف بغرابة نوبات ضحك جديدة وهو يدور حول مكتبه متجها نحو ابو رزق ويصافحه وبسير به بأدب وبتواضع شديد حتى أجلسه على الكرسي المحاذي لحافة المكتب الأمامية وتراجع بظهره وبنفس الطريقة حتى جلس على الكرسي المقابل على الجانب الآخر، وأسترخى غائصا في الجلوس في وقاحة زعيم ديكتاتور ووجه حديثه لأبو رزق دون أن ينظر اليه مظهرا انهماكه بطقوس استعراضية لإشعال نوع من السيجار الغير غليظ السماكة وقال في تساؤل لموروث تقليدي وعلى قسماته ابتسامة مصطنعة مع نصف التفاتة تحمل خلفية تشير للاحتقار وبنبرات صوت توحي بالتهكم وتظهر حركة يده سعادته بتلاعبه بالدخان الخارج من السيجار في قطع سحب صغيرة تتصاعد ببطء وتحوم فوق راسه:

- هاه يا بو رزق! سبع والا ضبع؟

وأستطرد قائلا:

- أتمنى، وأنا متأكد إنك سبع يا بو رزق!

وبتأكل الليلة ضيوفك من صيدك، يا السبع!

هلا بك! يا السبع!

رد أبو رزق بعفوية مظهرا الشجاعة في تواضع بضربات كف تحدث دويا على صدره:

- **عيب يا أبو طارق! اللي قدامك أبو رزق!**

  ملك السباع!

ضحك الجميع وكان يردد أبو طارق وهو مازال يضحك:

- **عظيم! عظيم، عظيم!**

ثم أردف متسائلا في عتاب:

- **لكن! قول لي وقبل أي شيء**

  فين العرايس؟

لم يفاجئ السؤال المنتظر أبو رزق وأجاب بسرور وتفاخر مع غمزات بالعين نحو الحقيبة الوادعة بين قدميه:

- **كله موجود، هنا، وبالتمام!**

ملأت السعادة وجه أبو طارق ومع إشراق البهجة أعتدل وأخذت يده تبعد كل ما على مقدمة سطح المكتب ليفسح أكبر مساحة عليه، وقال في لهجة تحدي:

- يللاه! نشوف كل التمام هذا يا بو السباع.

وهنا فوق المكتب .. وقدام عيوني!

نهض المدعو لمنصة المتحدي وكأنه مدعوا لتتويجه على جائزة تفوق، وسار بإيقاع منتظم وفي تفاخر حتى وهو يضعها فوق المكتب ثم فتح الغطاء بتأني كأسلوب فتح الستارة عن مفاجأة وأطلق بفمه عزفا موسيقيا للافتتاح، وأبو طارق يبتسم للعرض وعيناه مصوبة في وجه وملامح ابو رزق ومع تعمقه تحدث تقلصات غريبة وكأنها تحاول اختراق جمجمته لتغوص للبحث عن شيء ما ولكنها عاد بهما ليشاهد العروستين مستلقيتين في مخدعهما وسريرهما ووسائدهما طبقات من رزم البنكنوت في لون زرقة البحر!

فأخرجه هذا المشهد لفكر ومزاجية أخرى اتسعت له ابتسامته وأخذت أصابعه تتلاعب بطرف شاربه الخفيف، وألتفت نحو ابو رزق وكان ابو طارق لا يزال حتى اللحظة صامتا وفرقع بأصابعه في إشارة تنبيه لأبو رزق وتطلب الإشارة منه بضع واحدة منها على المنضدة الصغيرة أمام الكرسي الذي كان جلس عليه أبو رزق وطلب منه التكرم بالتوجه نحو دواليب بأبواب وواجهة زجاجية خلف المكتب وحين وصلها باستحياء ودهشه سمع صوت ابو طارق يقول له في أنس وابتهاج:

- طيب! يا ملك السباع! لو سمحت هات من صف الكاسات اللي عندك كأس كبيرة وحده، واحدة بس، وتعال!

فجاء به وأشار بأن يضعه فوق المنضدة الصغيرة التي أمام الكرسي الذي يجلس عليه أبو رزق الى جوار الزجاجة أو العروس، ثم بلهجة آمرة طلب منه التوجه للبراد وهو ثلاجة متوسطة الحجم وكلفه بإخراج وعاء ممتلئ بقطع الثلج المعد مسبقا وأن يجلب معه أيضا أحد عبوات الماء الصغيرة، ووضع الجميع إلى جوار الكأس والعروس التي كان وضعهما، وأخيرا طلب منه الجلوس على كرسيه وأمامه المائدة التي أعد هو كل ما عليها.

بعد أن أنتهى أبو رزق من فعل كل ما سبق وجلس على كرسيه كان صامتا وبالأصح قلقا، فما رآه من علامات وفيما سمع وأحس به كان غير مريح، فللرجل أنواع من الابتسامات تتفتح لثواني ثم تجف، مع نبرات صوته المتقلبة بين روح البهجة حينا ثم تغلفها الغلظة في لهجة أمرة تحمل الجفوة والشراسة، وأشد ما يقلقه الآن هذا الكرسي الوحيد الذي يجلس عليه وأمامه المنضدة الوحيدة وفوقها عروس واحدة وكأس واحدة وزجاجة ماء واحدة وهو الوحيد الذي يجلس أمام كل تلك المفردات الأحادية.

في هذا الصمت وما بزغ أمامه من أحاجي وغموض الموقف قد تجد في نفسيته المتقلبة وعقليته الموهومة البيئة المفضلة لتمارس أفكاره وخيالاته انفراداها في الخوض في كل ما هو معقول ولا معقول، ولتمرح أحلامه المنطلقة والسريعة التأثر بالهواجس والوساوس في العبث الغير متزن في المجالات الخطرة، ولكنه ولحسن حظه خرج عن بحار الظلمات التي أوشك أن يبحر في أعماقها ووصل

الى مرحلة الإفاقة على صوت أبو طارق ورآه يقول له في مرح وسعادة مثيرة في أعماقه زوبعة القلق والريبة إلا أن في العبارات التي سمعها في الحوار الممتزج بالمرح ما أثار فيه المخاوف وما جعله يرغب بشد شعر راسه وجره بكل قوة عله يصحو من هذا الحلم وان كانت نوبة سحر أو جنون فلعلها تخرج عنه فورا وشعر بهذا حين سمع كلمات الاحتفال تخرج من فم أبو طارق قائلة:

- يا شيخ! فعلا انت ملك السباع!

وانت تستأهل تشرب الكاس في مكتب نائب

المدير فاسمح لي أستضيفك على مشروبك في

مكنبي، هيا!

صب لك كاس مليانه تمام علشان أحتفل بك!

قال أبو رزق في نفسه إن أشد ما أصبح يخيفه في هذا الرجل نبراته الناعمة، فهناك مشاعر قوية وحتما سيجد في منتهى حلاوتها وعذوبتها سما، لأن فيما سمعه ما جعله يغرق في الصمت تائها في الحيرة والارتباك بما تسبب له بالشلل الذهني وهو يجد نفسه وحيدا وأمامه مائدته ولبس فوقها سوى كأس واحدة لا غير والسيد يطلب منه أن يملأها وأن يشربها هو فقط كي يحتفل السيد!

فامتعاضه في خضم الاجتياح لا يفيد، فقرر كعادته في مواجهة الخطر بالغموض كي لا يستفحل فيه عذاب الشك والتردد وهي طريقته حين يقع في المآزق

الغير معلومة والمضمونة النتائج بأن يسلم نفسه لتقلع به روح المجازفة! وحتما ستنتهي كل الأمور ولتكن النتائج كيفما أرادت ولن يحاسب نفسه بأي شيء أبدا، فسارع بمد يده نحو زجاجة الخمر وملأ الكأس أمامه ودلقه فورا في جوفه، وكان في قوة الحريق في فمه وعلى امتداد المريء ما خدر شعوره بالحريق الصادر عن الموقف والمأزق، وأشتد إحساسه بالنار المتأججة في فمه وأحشائه واغرورقت عيناه بالدموع مما زاد فيه روح المغامرة في القتال مع المجهول وملأ بسرعة كأسا أخرى وفورا دفع بما فيها وبجرعة واحدة، وأخرج هذه المرة حسه بالألم بالولولة وبالتأوه مما أضحك أبو طارق وربما بخبث!

وبعد سكون أبو رزق للحظات ويبدو أنه تأثير المشروب بدأ يسري في خلايا جسمه وبصيلات مخه ولكن دافعا فيه الحس بالنشوة والتوقد في كل مشاعره بمجمل أنواعها واختلافها، وتبخرت كل أحاسيس الخوف والقلق مع كل ما كان، وظهرت على شفتيه ابتسامة تعبر عن الحرج بعد سكوته مفكرا ألتفت نحو ابو طارق ليقول له بسطحية وعفوية مفتعلة يغطيها الخجل ومستبعدا معرفته بما يحدث أو اهتمامه بما سيحدث:

- ليه يا أبو طارق؟ انت شايفني قليل حياء لهذي الدرجة! حتى تورطني أشرب في مكتبك! ولحالي! لا يكون ناوي تسكرني وتتفرج علي والا تسلمني؟

أنفرط أبو طارق بالضحك الذي أثار في صدره نوبات السعال الساكنة وكانت منسية وخامدة:

- لا! لا! لا يروح بالك بعيد! النجاح اللي تم الليلة يحتاج للاحتفال! ولابد منه!
بس انت عارف أنا في ساعات عمل، يعني دوام،
انا نفسي أشرب لكن لازم أصبر حتى أسلم موقعي!

ولينهي النقاش قال بجدية:

- وهذا مبدأ وقرار! وانت اشرب، اشرب ولا يهمك! ومسموح لك! وانت لازم تقوم بالواجب عن نفسك وعني!

ثم هتف مشجعا ابو رزق في حماس:

- لاه! املأ لك كاس بس، يكون عني أنا! خليني أتخيل وأحتفل معاك!

ولم يزل أبو رزق في تشككه وغير متأكد من مصداقية ما يسمعه من الكلام، فهو دوما ممتلئ بالشك، وذكي جدا في التصرف السريع في أغلب المواقف إلا ما كان غامضا منها فيندفع بلا أي حساب لأي نتائج، ويبادر أحيانا بعشوائية

ويتورط الى أقصى الحدود ولكنه أخيرا ينجو بمميزات شخصيته القابلة للتلون وبالاحتيال!

وهو الآن يفعل الآن شيئا مشابها عله يصل للغاية المطلوبة منه وينتهي الأمر، فقرر هذا عند آخر كلمة من تشجيع أبو طارق ففتح الزجاجة وسكب منها كمية جديدة شربها فورا ودون أن يستعين ويتأوه ويستنجد بشيء يسكن لهيب الحريق ودون تمثيل، ولم يظهر أي ملامح للغضب أو الخوف ولا التوجس بل أظهر كل قناعته في قيامه بالاحتفال ووحيدا ليس إلا!

فخبرته ترى أن لا جدوى الآن للقيام بأي اعتراض ولا امتناع واتخاذ أي مواقف واستعراض للشجاعة وللكرامة، فالصمود على كل الوقاحات والإهانات ثمن رخيص في سبيل تحقيق الهدف من وجوده الآن!

ربما هو في وضع تحت التجربة ويتعرض لاختبارات ما، ومن هذا المنطلق باشر في سكب كأس أخرى تجرعها مملؤة بعد استعان بالثلج والماء وليقول مع شعوره برغبة في الضاحك:

- وهذا كان كأسك ونيابة عنك! ووضعت فيه الثلج

  يمكن على طريقتك!

  وكل اللي أشرب بعده هو لك!

وأنفجر ضاحكا وشاركه أبو طارق بالضحك وإذا باب المكتب يفتح ويطل منه السيد المدير العام، وألقى عليهما السلام ثم تراجع وأغلق الباب بهدوء ودون

أن يتحدث أو يبدي أي ملاحظة وربما تظاهر بعدم مشاهدته لشيء، ولكن أبو طارق لحق به وأستوقفه ودار بينهما بعض الحوار وعاد بعدها أبو طارق مغلقا الباب خلفة وصفق بيديه صفقات خفيفة قائلا في حماس:

- يلاه يا سبع دوري! أنا صرت مبسوط!

اشرب لي كاس ثاني! وبالمناسبة المدير يبغى ينبسط

كمان! ويبغاك تمشي له دور، لكن خليه بعدي.

ولأجل هو مدير عام لازم تكثر له وخليه حامي جدا!

كان جازع بن رزق الله قبل هذه الطلبات قد تجاوز بمسافات كل مراحل التماسك في السلوك والحركة المعتدلة وترك كل التزام بالديبلوماسية وتخلى عن كل المحاذير التي كان يلتزم بها سابقا، وتلاشت عنه كل القيود التي كانت تفرض عليه هيبة الموقع وهيبة الأشخاص والمناصب الكبيرة كالتي يتعامل معها الآن، ونسي تماما حقيقته بأنه مجرد فراش أو ساعي يخدم في وزارة وقد صادف قبل هدا بأسابيع أحد مندوبي الشركات يستفسر عن مصدر وطريقة للحصول على الكمامات الواقية من الغازات السامة لتزويد منسوبي شركته أو عن الكيفية التي يمكن الحصول عليها أو استيرادها؟

وكالعادة أراد أن يكون ذكيا وهو صاحب شخصية غريبة جدا، ولاهتمامه الفائق بأناقته وبمبالغة للدرجة التي أشعرت هذا المندوب أن من يتحدث معه هو مسؤول مهم في المكتب أو في الوزارة، وفي الحقيقة صادف أن كان المسؤول

الحقيقي في اجتماع هام وهذا المستخدم الأنيق يقوم بالرد على اتصالات الهاتف ورآه يجري مكالمة ما، وأقتنع بعلو شأنه وتأكد وهو يعده بالنظر في الموضوع الذي جاء من أجله، كما عرف أبو رزق بأن هذا الصيد اسمه جمال غنيم، وطلب منه رقم هاتف الاتصال الشخصي المباشر واسم وموقع الشركة، وطمأنه بأنه مهتم بأمره وسيتصل به فور جمعه لكامل المعلومات والتفاصيل التي تسهل وصولهم للجهات الخاصة بتأمين مثل هذه المواد.

وبدأ يكثر الاتصال به ويستدرجه لاحقا لمعرفة أسماء الفاعلين في شركته ومن يعتمد عليهم في إقرار مثل هذه المشاريع، وأطال الاتصالات بهم وكان هدفه أن يأخذ وقتا للتفكير بجدية لتفعيل جدوى ما سمعه ذات ليلة فائتة في أحد المجالس، وكان أجتمع فيها لفيف من الأصدقاء وأصدقاء الأصدقاء لتمضية تلك الليالي المقلقة والطويلة تحت مظلة الحجر تحت رعب العواء والزمجرة المخيفة للزواحف الجوية المغيرة ومطارداتها من قبل أخرى لا تقل عنها شراسة وهي تنطلق تحوم ككلاب الحراسة وتعترض سبيلها وتلاحقها حتى تدمرها في الفضاء لتدفع أذاها بالنهش قبل وصولها الى الحارات والمباني والميادين.

وفي هذه المجالس تتسمر أعين البعض بتلك المزايدات المثيرة بين القنوات بالأخبار التي تشنف آذان الجالسين من هواة البهرجة والصراع الإعلامي ويجدون في شاشة القنوات الفضائية ما يريدون وما لا يريدون وتحمله اليهم بالقص واللصق والفبركة وما يعقبها من أنواع النطاح الحواري الملتهب بفواصلها من التحديات والتهديد أو الدعاء بأدمع العين وبالأماني الموصولة والتمني على

بعضهم بالمزيد من النكبات والأزمات والانتكاسات مع الآمال بأقوى الانفجارات في المبارزات الشرسة وبأوسع الحناجر، وتزدهر لقاءات الإثارة حتى تصل بالأمور إلى الركل واللكمات الخطافيّة في مواجهات عامة ينظمها ويتفنن بإدارتها مسئولي أقسام برامج الردح على حلبات القنوات الراعية لها وهذه المجالس العامرة

ليل نهار دون توقف وهو ما تفرضه الحرب، ولأنها الحرب!

وبين هؤلاء "السّمار" من تستفزه الأجواء العاصفة فيبدع في مهارات ألعاب البلوت والكونكان بينما يمارس بعضهم هوايتهم في النقاش والتحليل السياسي والخوض وبناء استراتيجيات الحروب والمجادلة في النقد لكل شيء، وبينهم من يهوى تبادل المعلومات القيمة وهم من هواة تبادل الإشاعات. وأكثر حضور المجالس معظمهم من الموظفين من قطاعات مختلفة وطلاب جامعات وغيرهم من الحرفيين والمتسببين كأبو رزق ومنهم أيضا أصحاب مناصب وعلاقات خاصة بأصحاب المناصب ولكن المجالس بحسب العلاقات المختلفة والتي يحرص على حضورها الكثير من "الحشريون" أو المتطفلون، ولا بد أن تدور معظم الأحاديث في المجالس حول هذه الحرب القارية ومع هذه الحوارات ويخرج من يدعي العلم بالأمور والأسرار وبما في الكواليس العسكرية عن هذه الحرب التي تشرفنا نحن العرب وكخليجيين خاصة باستضافة جيوش العالم على أراضينا.

وفي ليلية من هذه الليالي وفي معمعة الإشاعات والمتباهين بمعرفة الأسرار التي لم يعد يهتم بها سوى لحظة خروجها ثم تختفي في حينها وهذا طبيعي فلم يعد أحد يعرف المهم والخطير والحقيقي والمزيف بين الكم الرهيب مما يقال ويسمع ويختلط بغيره من تافه الأخبار وأكاذيب تسمى معلومات ميدانية وسياسية واستخبارية وعسكرية وإلخ، ومن جهات الدنيا الأربع وفي ركامها وبين بياناتها كان دهاء أبو رزق يبحث باحترافية ويدقق بكل معلومة عله يقتنص فرصة العمر، وأتت اليه بالصدفة عندما رافق أحد الذين يلتصق بهم كوسيلة للبحث ليلا عن الفرص في مثل تلك المجالس وسمع حوارا مقتضبا لصديقه مع شخص آخر وعن آخر نكتة وكانت استيراد شركة أو أحد الجهات المختصة لنوعية من الكمامات المضادة للغازات والمواد الجرثومية والسموم الكيميائية وثبت عدم صلاحيتها وقد وجهت اليها أوامر حكومية سريعة لإتلافها لتعذر إرجاعها!

ولاختفاء المعلومات الحقيقية عن الوسيط المحتال والشركة والدولة المصدر، وتبخر هذا الخبر سريعا في جو المجلس الملتهب بكل ساخن.

وفي اليوم التالي كان الالتقاء العفوي لجازع بن رزق الله بمندوب الشركة السيد جمال غنيم، وليقوم بعدها ابو رزق بمجهودات جبارة للنبش وراء تلك المعلومة العابرة الأقل من تافهة بين كميات الأخبار والإشاعات حفظت هذه المعلومة بعناية فائقة في رأس أبو رزق وليتفتق فيها ذهنه كسمسار مشجون بالطمع والطموح، وليبني عليها أحلامه الكبيرة والقديمة التي قد تخلصه من مغامراته العبثية في حراج الرخوم في خرائب حي السبالة القديم، ورأسماله عشرة ريالات

للمزايدات على أكوام من الخردة والبضائع القديمة والملابس وأطعمة نتنة الرائحة.

وتوافق هذا الأمل مع اقتراب الموعد المؤكد لانكماش المرتب إلى النصف خلال منتصف السنة القادمة بالتقاعد، ولعل هذا الأمل ينسيه طريق الوزارات والحي بأكمله ومشروعه الدائم في البحث عن سكن بالقرب من حي السبالة!

فمن يدري فقد تأتي الرياح ببذرة اللقاح، وتتحول الى فكرة سحرية جهنمية فتسكنه في فيلا فاخرة أو قصر في شمال الرياض ويشارك بعدها بمزادات المخططات الكبيرة والقصور والمجمعات السكنية والأبراج، وتتحول سيارته "الداتسون الغمارتين" إلى أحد آخر الأحفاد المعاصرة من سلالة "أبو عيون جريئة" السيد بنز موديل ٩٢، فكم زرعت الحروب من آلاف الأغنياء وأنبتت فاحشي الثراء من بين المليارات من الفقراء!

فلا تستبعد هذا!

أنها الحرب يا رجل!

ولدى أبو رزق أو جازع بن رزق الله جميع المؤهلات المطلوبة لذلك وأهمها الطمع والجشع مع أهم المميزات والخبرات بممارسته للمزايدات والسمسرة وحظوظ وافرة من الجرأة وحب المغامرة العمياء ومعها أيضا ميزاته بمواهب واسعة من انفلات اللسان والنفس بالنذالة والكثير مما عرف بما يقابله بالمصطلحات المصرية في معاني "التناحة والطفاسة والرخامة" وعليك الإكثار

من مرادفات هذه الأوصاف لمواهبه، ولديه كل الدوافع لأن يحقق مبتغاه بأي وسيلة، ومن صور هذا التعامل قيل أنه أجبر أحدهم يوما على دفع خمسين ريالا ثمنا لما أدعى أنه سروال جينز، ويقال بأن أحتال على آخر ليدفع له مثلها ثمنا لكرتون مكرونة تاريخ صنعه عام ١٩٧٢م، وكما عرف عنه بأن الكثير يدفعون له مكرهين وهم على استعداد للدفع وأن يتركوا له ما أشتروه كي يفروا منه وعن مطاردته لهم وإلحاحه عليهم بالشراء وغيره، ولديهم الاستعداد لدفع المزيد فقط ليبتعدوا عنه وعن الحراج وعن حيّ السبالة بأكمله مع الإقسام بعدم العودة!

أما في الصباح الباكر من كل يوم فهو شخصية أخرى لا تصدق، وهي على النقيض تماما، بمميزاته الغير محدودة من الأناقة المتناهية وفي كمال الشياكة الشديدة البذخ! وتكون في أيام ووقت عمله في الوزارة أو في المناسبات الخاصة، فيكون فيها شخصا آخر بعيد الصلة عن أبو رزق السمسار أو الدلال!

ففي الوزارة يشاهد وهو يتنقل بين المكاتب ويسير في الممرات بهيئته الرائعة وبالعطور الفواحة الثمينة في القيمة مع خطواته الواثقة وبالتفاتات متعالية وغالبا يحمل "البشت" على ذراعه وأحيانا على كتفيه في الخروج وقبل الدخول، ويظنه المشاهد مديرا عاما هذا على الأقل إن لم يدخلوه في التصنيفات الوزارية.

فلا يمكن بحال التصديق بأنه مستخدم في هذه الوزارة، وبتلك الوجاهة والمزايا تمكن بسهولة من اختراق كل البروتوكولات وأوجد له سبلا راقية للاتصال بأكثر الجهات ومباشرة مع مدراء الأقسام والإدارات ووكلاء الوزارة، وهذا ما جعله

يفتح بذكاء قنواته القوية التي يصل بها بسهولة ويحتوي على الرجل المناسب وصاحب القرار كما أوصلته للمسؤولين عن التصرف بتلك المخزونات المسجلة تحت البند المسمى "تالف"! وحصل على ثقة السيد أبو طارق كمسئول المستودعات والمكلف بالإتلاف، وتمكنا من الحصول على تصديق وإمضاء المدير العام بمقابل الأربعين بالمئة، وحمل إليهم أبو رزق العروض بالمبالغ المغرية لشراء أكبر كميات منها وسرا بعد تسجيل محاضر الإعدام لها، وان طالت أيام الإقناع فالأهم أوصلهم للاقتناع وكان لهم ما أرادوا وفتحوا الخزنات على المبدأ "فتح عينك تأكل ملبن" وهذه كانت أيضا حرب، لو تعلم يا رجل!

وكان الإغراء بفتح الشهية الجشع لهبرات الظهر اللذيذة للمفاطيح الدسمة ولتطير الطيور بأرزاقها، ولأنها وليمة كما يقال عنها في الشمال – محفوفة– أي محددة العدد والوقت وبعيدة عن أنظار المتطفلين، فقد تسابق تحوها العارفون وسيكون الانتهاء منها قريبا، وقبل تصاعد الرائحة وتجمع الكلاب والضباع وكل ما يحلق في السماء ويدب بحثا عن الرمم على الأرض، وقبل تيقظ كلاب الحراسة وتمزيقها للكروش المنتفخة، وبساهمة الخلطات السرية للمطبخ الأمريكي الأوروبي للترويع مع قنوات بأنفاس حليمة الرغاية وطوافة البيوت ومعها السيدة حلبجة تنوح لتصف مسام الجلد الأزرق والأسود للجثث المتروكة في العراء وقد رأتها بعينيها كهوفا ممتلئة ومكتظة بالأفاعي السامة التي يربيها الرفيق" الكيماوي" وتأخذان بالصراخ لتنذر بأنها ستأتي وتملأ الشوارع

وتزحف إلى الحجرات في كل البيوت للبحث عن الأحياء من الأطفال والأمهات!

وهكذا يتهافت أصحاب القرار ركضا للنجاة وللوقاية وبينهم من يركض لاغتنام الفرص بوليمة قبل أن تشرق شمس الصباح، وتفتح لأبو رزق الخزائن بأمان بحجج حماية حياة الأفراد.

*****

تعتبر الليلة هي العملية الثانية والأقوى من تلك التمهيدية، وهناك الكثير من العقود تحت الطبع وهناك ما هو في الطريق للاعتماد لفتح الخزائن الحديدية الكبيرة، وهذا أبو رزق يجلس ويدندن بصوته أغنية ورأسه تتمايل متخيلا نفسه محلقا يتخلل رأسه السحب وهامته تتفادى كتل الغيوم بينما هو يجلس على الكرسي وأمامه المائدة وبطريقة غريبة جدا!

ونرك جسمه ينزلق عن الكرسي حنى وصلت مؤخرة رأسه الى أسفل الكرسي وبهذا أصبح وضعه كالمستلقي فوق الكرسي على وظهره ومؤخرته معلقة في الهواء وساقاه يمتدان مسافة بعيدة عن الكرسي وهو وضع أقرب إلى النوم!

بينما أبو طارق يراقبه بزاوية العين وهو يدقق بقراءة العقود وكان يبذل جهدا خرافيا بمنع نفسه عن الضحك، وحين شعر بأنه الوقت المناسب لتنفيذ مخطط ما قذف بالملفات بعيدا عنه وبرزت عيناه مظهرة شدة الغضب ووقف للحظة

يحدق في أبو رزق وهو كالهائم في تلك الحال، وأندفع نحوه بخطى سريعة حتى وقف فوق رأسه وصرخ فيه بلهجة آمرة وغاضبة:

- قوم! قوم يا نتن!

قوم اجلس على الكرسي صح!

وكأن أبو رزق تعرض لصاعق برق أحرق أجنحته وهو ما زال بين السحب، وانطفأت ابتساماته الحالمة والهائمة في سعادة بكابوس رؤيته لنفسه يهوي من حالق السماء نحو الأرض في سقوط حر سريع وكأن الأغنية البريئة الأحاسيس والتي كان يترنم بها قلبه ولسانه فقفزت معه للانتحار، واتسعت أحداقه من الدهشة أو الهول، ورأى حقا ما سبق وفكر فيه من الشكوك بجدية الشرر يتطاير من عيني أبو طارق!

ولكن الثمل الشديد هو ما أخذ يظهر على أبو رزق بينما يحاول النهوض بسرعة، فلم ينجح لأكثر من مرة برفع جسمه نحو الكرسي وقبل أن يعتدل جسمه أصبح وفجأة يرى نفسه في سباق محموم مع غترته وعقاله نحو باب المكتب على اثر ضربة قوية من أبو طارق اجتثته من على الكرسي ليقطع هذه المسافة وبأسرع وقت ومحلقا بلا أجنحة، بل كالقذيفة. شعر بأنه ربما تعرض لضربة ما ولكنه لم يتمكن بعد سقوطه من تحديد نوعها أو موقع سقوطها على جسمه، ولكن يعلم بأنه انتزع فعلا قبل أن يجلس على الكرسي وأقلع عنه فورا إلى حيث وصل وحددت المسافة قوة الضربة الرهيبة لينتهي في ذلك الوضع

مستلقيا على ظهره في أقصى المكتب وفاقدا أي قدرة على الشعور والتذكر أو التفكير أو على الحركة للنهوض من جديد لولا أن لمح أبو طارق يندفع اليه مجددا بهجمة أخرى ليقفز هذه المرة بلا وعي من مكانه جالسا على ركبتيه متوسلا يطلب الصفح، ومعتذرا بكل ما عرفه من فنون وعبارات الاستجداء والخنوع وأبو طارق يواصل نهره ويأمره بالوقوف على رجليه والآخر يتردد ويحجم خوفا من ضربة مفاجئة تالية، والتي حتما توقعها ورسم مساره بها وهو ينظر بلفتات متتالية إلى مسافة النافذة المفتوحة وأيقن بأنه سيمرق منها طائرا وبدقة ليهبط خارج المبنى وبغير سلام فوق سطح سيارته الواقفة تحت المبنى والنافذة مباشرة، لهذا واصل في توسله وبأن يبتعد عنه قليلا لان أرجله ستظل عاجزة عن حمله طالما بقي قريبا بهذه المسافة، فما كان من ابو طارق إلا أن أستدار عنه مبتعدا ليقف بجوار المكتب لينفس قليلا عن ما يتكتم عليه من زوابع عاتية من الضحك تريد الانفكاك للتفجر، ثم ألتفت اليه قائلا:

- يلاه! يا جربوع روح اجلس هناك على الكرسي وزي الناس .. الناس المحترمين!

وأنطلق أبو رزق مهرولا في سعادة لتحقق المسافة الآمنة:

- أبشر، أبشر! على أمرك!

هرول مترنحا ليحشر نفسه في الكرسي بخوف وذلة ومجتمعا مع أطرافه كالكرة، ولم يصدق عينيه في آخر نظرة لمح فيها أبو طارق مبتسما وسبابته تداعب طرف شاربه ويخاطبه بنبرات هادئة قائلا:

- طيب! ايش بقية التفاصيل اللي في الشنطة بالزبط؟

ودون تفكير وهو يلاحق سراب الشجاعة في أعماقه أنطلق لسانه:

- فيها الفلوش، قصدي الفلوس والشيكات والعروشة

قصدي العروسة الثانية!

وتأكد هذه المرة بأنه لا يزال يتكلم معه مبتسما وان كان تعلم ألا يصدق كل ما يراه، ولكنه أختار الاندفاع وهو يسمع:

- طيب! تعال طلعها فوق المكتب ووحده، وحده!

ليقفز بروح المغامرة دون أي تفكير بالنتائج سوى الأمل بالنجاة رغم بقاء أحاسيسه بالهوان وبالذل:

- حاضر! حاضر يا سيدي يا بو طلال على أمرك،

قصدي يا سبدي ابو طارق الله يحفظك ويسترك.

وراح يخرج ما في الحقيبة ودون احتفاليات وهو يسمي كل الأشياء بمسمياتها حتى قال وهو يخرج الرزم النقدية:

- وهذي كل الفلوس النقدية!
- كم المبلغ؟
- ثلاثمئة ألف .. يطول لي في عمرك!

وفي جدية أمره أبو طارق:

- طيب! أفرز منهم خمسين ألف وحطها بجنب الشنطة وقفل!

- على أمرك حاضر، حاضر!

وسمع ما أشعره من جديد بالسوء وأعاده لقمة الإحباط:

- طيب! قفلها وروح أجلس على الكرسي زي الكلب المتربي!

ولم يجد ردا سوى الهرولة نحو الكرسي:

- حاضر الله يطول لنا بعمرك!

وسمع طرقات على الباب وبالكاد سمعت، فقال أبو طارق:

- أدخل يا علي!

دخل "علي" ، وبكل أدب، ولكنه كاد أن ينفرط بالضحك وهو يرى أبو رزق يجلس متقنفذا على الكرسي ألا أنه لمح في عينيه بقايا دموع وبحزنه وهو يعض على طرف غترته، ورأى أن يتماسك تماما وقال بحماس لأبو طارق:

- كل شيء أنتهى تمام يا طويل العمر!

وسلم أبو طارق كشف الحمولة ليضيفه مع بقية الأوراق في الملف الموضوع على الطاولة وأعطى كامل الملف لعلي وهو يقول له:

- طيب خذ الملف وروح لأبو فهد خليه يوقع على الورقة هذي وبس! ويتطلع على أوراق العقد لكن لا يوقع شيء غيرها، فاهم! هذي وبس!

ورد عليه الشاب عليَ سريعا:

- أبشر على أمرك!

وبكل الأدب والحماس أجاب الفتى اللبق وأستأذن مغادرا وأغلق الباب خلفه، وان كان لم يفته أن يلقي نظرة سريعة ولكن بخبث على القنفذ البشري –

اللابد– أو الجاثم في توجس وترقب في الكرسي فأسرع في خطاه هربا من المكتب بما حمل من الضحك مع الملفات.

أنتقض فجأة أبو رزق وهو يسمع صوت أبو طارق يوجه اليه الحديث بحقد وصرامة ممتزجة بالتهكم:

- طيب يا بو رزق!

لك أسابيع وانت تتفلسف علينا وتعمل نفسك ذكي،

وعلى بالك إنك خطير وفاهم!

لا وكنت ... تساومنا وتبغى تفرض رأيك! يلاه

نشوف! هذي الفلوس قدامك!

وأشار أبو طارق بيده الى ما فوق الطاولة وقال في تحدي:

– ومد يدك يا حيوان وخذ ورقة وحدة إذا تقدر!

يللاه! أشوف فتاكتك الليلة!

لكن أبو رزق لا تعجزه الحيلة ولا تمنعه الوسيلة من السعي للهدف أو الوصول اليه، فراح يطلق أنواعا من الابتسام وأشكال من الالتفات المعبر عن الخجل وعن الأسف وراح يتودد لأبو طارق باللين والخنوع وبحزن في الرجاء ولم يبخل ببذل الدموع بسخاء مع أكيال من عبارات التضرع بالاعتذار والرغبات الصادقة في الوفاء بعد العفو والتجاوز عن غلطاته الشنيعة:

- انت الكبير وانت سيدي وتاج راسي!

وأنا أخ صغير وغلطت!

وطرق الباب مرة أخرى وبالكاد يسمع ودخل الفتى "علي" وسلم الملف ثم سأل عن أي توجيهات جديدة، وجاء الرد جاهزا وسريعا ومذيلا بغمزة عين:

- طبعا انتهوا من الشحن؟ طيب خليهم ينتظروا شويه وضيفهم الين ينزل عليهم السيد جازع!

وبدا أن "علي" هذه المرة دائم التبسم منذ دخوله حتى خروجه لأنه كان دقق في التحولات التي طرأت على حالة القنفذة، وربط بينها وبين الغمزة والتعريف بعبارة "السيد" من قبل أبو طارق ووجب أن يعامل كما يليق.

وبمجرد غلق الباب أسرع السيد جازع نحو أبو طارق ليقبل رأسه ويده غير مصدق بنجاته أو خروجه مرة أخرى من هذا المكان سليما ولا أن يخلع عليه أبو طارق ولأول مرة لقب السيد!

والسيد جازع هو أول من يعلم وجرب أن للحرب خسائر وللحرب ضحايا.

وكما أن للحرب مزايا يا رجل!

أخذ أبو طارق يحوم في نصف دائرة على كرسي مكتبه الدوار ولعدة مرات بينما السيد أبو رزق متسمر على كريبه بجوار المكتب في خنوع تام وكأنه ينتظر الأوامر أو الحكم قضائيا، فجاءه برعبه عبر صوت حازم:

- عارف بقية الدور اللي رايح تقوم فيه الليلة؟

فأجاب بتلعثم وارتباك:

- أكيد فاهم يطول في عمرك، أسلم المندوب العقد والبضاعة وأروح للبيت .. اذا سمحت!

وأبتسم أبو طارق بسخرية:

- تروح البيت؟ لا للساعه دورك ما أنتهى!

وبعدين معاك؟

ورد باستسلام تام:

- اللي تامر فيه، يطول عمرك!

وقال له رافعا سبابته نحوه وتركها تحمل الكثير من المعاني:

- انت عارف الكمية اللي باقية، وانت سبق قدمت لي كشف بالعملاء المحتملين واحتياجاتهم، وهي بحجم

الموجودات وبالتمام!

وذي لها شكر واعتبارات بعدما ننتهي بنجاح.

وفي تشديد لهجنه تابع:

- لكن المهم! ومن بكره وخلال الثلاث أسابيع الجاية بالكثير لازم يكون المستودع فاضي وبمعنى الكلمة!

وأضاف متمهلا:

- يعني! كل ليلة أو ليلتين تكون جاي بشاحنة والا شاحنتين وتأخذ كل جهة المخصص لها .. وبنفس الشنطة يوصلني كامل المبالغ من غير ما تنقص ولا قرش واحد! فاهم؟

وبصوت حمل اليه بعض الدفء في أوله ثم الألم والمرار:

- وانت يا ابو رزق... لازم تكون متطمن على نصيبك وبالكامل في كل عملية!

بس! لازم نفهم انه ما انت لامس منها هللة قبل ما تفضي المستودعات! فاهم!

وهذا كمان حسب ترتيبات ثانية!

وقبل أن يتساءل أبو رزق أتاه الجواب بما لم يتمناه:

- لأنه انت لو خرجت من هنا بعشرة آلاف بس .. في نفس الليلة تكون بايت في الحديد!

لأجل وجهك مو حق عشرات وميات الألوف!

وبتفتح علينا العيون قبل ما ندفن كل أثر للعملية!

وبصوت حمل الصرامة:

- ومع هذا أطمئن على كل قرش لك رايح يكون في الأمان، فهمت يا متذاك!

وأنطلق السيد جزاع مهرولا خلف المكتب محاولا هذه المرة تقبيل أقدام أبو طارق إلا أن هذا نهره بشراسة واحتقار قائلا:

- والله لو نزلت على رجولي لا أرفسك وأفقع وجهك!

وأكسر أسنانك! يا واطي!

وأضاف:

- وكمان بتخرج للناس وفي جيبك مئات الألوف وملايين؟ يلاه! أقلب وشّك!

وزي ما فهمتك، ثلاثة أسابيع بالكثير!

وبصوت كأنه قادم من نفق عميق بين التضرع والحزن خرج صوت أبو رزق:

- بس الدوام! وشغلي وبضاعتي في الحراج ..

ليكفهر وجه أبو طارق سخطا وحنقا:

- ماني قايل إنك واطي، وحقير!!

وزاد:

- ما تبغا تروح بعيد عن الزرايب، يا معفن!

ثم زاد أيضا قائلا:

- ذا الحين أبغى أنظفك وأطلعك رجل جاه ومال
  وأعمال وترك على صب الشاهي وشيل القراطيس
  والكراتين يا واطي!

وبعد صمت كان أبو طارق خلاله يهز رأسه بأسى ثم نهض واتجه نحو أبو رزق ولكن لمواساته بالتربيت على كنفه لتشجيعه وبالكاد تمكن من وضع يده على

كتفه لشدة خوفه المترسب فراوغ تحسبا لمثل تلك الضربة المدوية، وجلس أمامه وقال له بصوت هادئ:

- من بكره! تقدم إجازة، أي عذر لشهر، ثلاثة أشهر

لو تفصل نهائي!

المهم دورك هنا تكمله للآخر، والسلام!

يللاه اجري!

وأراد أبو رزق بعدها استغلال هذه البادرة طمعا ببعض الألوف وصرف عدد من الابتسامات المنوعة والمدروسة وأخيرا قال:

- بس ما اقدر آخذ منها ..

يعني كذا والا كذا ..

ليثور فيه أبو طارق غضبا:

- أنقلع! والله ما تشمها قبل ما ينتهي الدور بالكامل!

واحنا نتطمن إننا في أمان، ونرتب للثروة حيلة كيف

نزلت على مستخدم كحيان ودلال معفن في حراج الرخوم! فكر من الليلة وقول لي!

ثم شن حملة ازدراء كانت أشد من التوعد بالهلاك:

- مستحيل أعطي الفرصة لواحد صرصور زيك

يضيع حياة كبار الشخصيات!

لكن أنت يا حشرة صدقني بعد الأمان بتصير تلعب

بالملايين وبأمان! لو سمعت النصيحة!

وعاد يجدد له حملة التحقير، والعجيب أن أبو رزق أصبح يسمعها منه نغما:

- لو إن أمثالك لازم يبقى على مستواه الحقير!

لكن ذي من طفرات الزمان!

أو الشطحات اللي يخلقها الله في الطبيعة!

فيغني المعفنين والهبل زي ما يرزق دود الأرض

في الجحور!

لكن وعلى العموم! لو نجحت حتى النهاية!

وقال وهو يبتسم ولأول مرة ابتسامة حقيقية شديدة الصفاء:

- أنا .. في ذاك اليوم أول من يرحب فيك في عالم

المستويات الراقية والمال والأعمال! يا جربوع!

* * * * *

عجبا أن كل هذه الإهانات وحملة الإذلال والعبارات القاسية لم يحرق فيها أبو رزق سعرا حراريا واحدا في غضب أو رفض أو احتجاج ولا .. تنديد رخيص؟ ولكنها أمست تدخل إيوان أذنيه لتلقى الترحاب وغاية الاعتزاز وحسن الاستقبال بل أصبح يراها في أعماقه مواقف عبقرية تدل على ذكائه في التصرف، فيتعامل معها كمسلمات وحقائق طبيعية! *فما الذي يغضبه؟*

وأبو رزق نفسه هو أول من يعرف رداءة وضعه، وما زال يعيش في انحطاط ويتعمق فيه حتى الساعة، وهو واثق منذ القدم من حقارته وقذارة ضميره، والتي يخفيها ويغلفها كل صباح بأفخر الملابس وبجمال المظهر والعطور والسيماء المزيفة، والتزلف للشخصيات ذات المكانة والتذلل للأشخاص "الواصلة"، وهو يفعل لهم كل هذا ولم يدخلوا في جيوبه ريال واحد! فكيف لا يتحمل من تسبب له بجريان تلك الملايين؟

لهذا أصبح يبتسم لما يسمع وأعماقه تقول:

- **زدني يا هذا! أأنت بخيل؟ لأنني أنا المحظوظ بك!**

بعد مرور عدة شهور كان أبو رزق أكل من الزبيب حتى التخمة، وتحققت تنبؤات أبو طارق في ذلك الجربوع الذي تحول الي إمبراطور في المال وأعمال التجارة والسمسرة في أكبر المزادات في الأرضي والعقارات والمساهمة في إنشاء المجمعات والأبراج وبعد أن قام أبو طارق وشركائه بجعله واجهة لأعمالهم التجارية الخفية بجميع أموالهم باعتباره "صاحب الحظ اللي يفلق

الحجر" وجاهدوا في صنع شخصيته الجديدة كرجل مال جديد باسم الشيخ جازع أبو الخير!

جاء بأمواله من محافظة خارج العاصمة للبحث عن الفرص الاستثمارية، وكون هؤلاء الشركاء مجموعة متحدة ومتضامنة لتسهيل المكاسب العظيمة والسريعة لبعضهم لتحقيق الثروة والثراء الفاحش وبشتى الوسائل، وقد أشترى قصور أحلامه وخص أحدها ليكون المجلس الدائم لهؤلاء الشركاء أو القاعدة الرئيسية التي يتم فيها تداول المعلومات وكل من موقعه العام أو الخاص حول الفرص السريعة دون النظر للمشروعية أو الأنظمة، فميزانيات وبند بيع وشراء الذمم مفتوحة بأكبر العطاءات، وبهذا تم الاستيلاء بأقل الأثمان على أراضي واستثمرت المخططات وتم التعامل باستيراد جميع أنواع البضائع الرخيصة الفاسدة والأجهزة المزيفة وكانت حظوظ السيد جازع أبو الخير في جميع مشروعاتهم تفلق الصخر فعلا، وتربع وتمتع بأعظم مما تمنى وتخيل في حلمه الكبير بفضل تكاتف اخوته في الهدف وفي المصير في مجموعة من الأخوة المتضامنة والمتلاحمة بالسر من أجل الغاية حتى أن أبو الخير كما أصبح يكنى يدعو مجموعته وفخرا بالإخوة الماسون، والذين لا يمكن أن يتبدل أو يتغير في معتقدهم ومذهبهم وتماسكهم زيادة أو نقصان سوى تضخم أرقام أرصدتهم.

ها هو الشيخ جازع أبو الخير يجلس الليلة متوسطا مجلس الإخوة في قصره العامر بهم فقط، فهم أسرته الكاملة مع خزنته الفائضة التي أنسته الزواج والأولاد ومن يقضي أوقات فراغه وبقايا الليل بجوارها يحادثها ويسألها إن امتلأت

ويبشرها بالمزيد، وانتهت جلسة الأعمال وما سيتم غزوه في الغد وما سيحصدون، ونهض من بينهم للانفراد بنفسه في غرفته وتركهم ليفتتحوا سهرتهم بما اعتادوا عليه من وسائل اللهو للتنقل بين ما شاءوا من الموائد.

صعد ودخل غرفة نومه المترامية والباذخة الأثاث والسجاد والستائر المخملية وانعكاسات الضوء بالألوان الشاعرية الساحرة، وجلس في المكان المفضل المجاور لعازل زجاجي عريض متحرك وبطول الشرفة التي يفضي اليها وقد ظهر فيها ما أبدعت فيه مخيلة وأيدي مهندسي الديكور وفنون البستنة وسحرة الإضاءة لتكوين فردوس صغير يحمل أجمل المناظر ومشاهد رائعة تبحر بالعقل في متاهات تذهل البصر وتتفوق على الخيال، ولكنه جلس هذه المرة وهو لا يرى مما أمامه سوى الصور العالقة بذهنه منذ غادر المجلس. وتنهد بسخرية ممتلئة بالمرارة:

- بس؟ هذا ثمن السكن في مثل هذا القصر ..

  وفي أرقى حي بالعاصمة؟

وأضاف بتهكم وبنفس الطعم والنكهة:

- بس؟ كم لطمة ولكمة مع عدد من الكلمات المتعالية

  مبهرة بعبارات رخيصة من مشاعر قذرة وبعدها

  بق، بق، بق ....

قالت شفتيه تلك البقبقة مع فرقعة بأصبع الوسطى والإبهام والغاية تشير إلى العلو في العلياء!

وأكمل:

- وهي كم شهر وتستحم يا ابو رزق بمسبح من الرخام المرصع والمحلى بالذهب وممتلئ بالمياه الفضية المعطرة والمجلوبة خصيصا من أصفى المنابع؟ ..

وضحك هذه المرة بصوت أعلى:

- وتخرج من البركة براق، متوهج ومن كل الجوانب والزوايا ..
  لأنها غسلت كل القذارات الحقيقية الخارجية ومعها
  كل الكلمات القذرة التي قيلت فيك! وتلبس بعدها كل
  ملابس التألق والرفعة وتتوجك بالسيادة! يا هووووه!
  ماني مصدق!

وصفق بكفية بقوة دهشة وليتقدم في هذه الرؤيا بالنتيجة الرائعة:

- طبعا! تاج وعبارة السيادة بتخرج لي من نفس
  الأفواه اللي أطلقت عليَ الإهانات وأوسخ الكلام!
  وأكيد رايحين بكلمة السيد يطرقون أبواب قصوري
  وأولهم .. هذا الحبيب اللعين أبو طارق!

ومعاه كل حقير من أمثاله من الحثالة الاخوة ..

كان وهو في مقعده يلتفت يساره وينظر إليهم، اخوته الماسون كما يطلق عليهم ويراهم ويسمع أصواتهم أيضا لو رغب من خلال الشاشة الكبيرة في جانب من الغرفة وتنقل اليه ما يدور في الصالة السفلى بواسطة كاميرا يمكن التحكم بها، فأدار العدسة نحو مائدة أبو طارق وكان منهمكا على طاولة مع أبو فهد وعدد من الأخوة في نشوة وانسجام، وقرب الصورة وتبسم في سخرية وهتف بصوت عال:

- **هذا السيد أبو طارق الحبيب اللعين، مع إخوتي الماسون، كان مثل غيره اللي إذا شاف زهرة مال بيد اللي مثلي من العدمانين يحتضر غيظ وقهر ويزدري أي سحابة خير ومكون تخيم فوق بيوت الطين وأكواخ الصفيح! لكني سخرته بفضل ذكائي وصار واحد من أتباعي**

وأكمل في ازدراء:

- **كان مثل بعض اللي يتمنون الموت أهون من شوفة الخير يجري علينا يا الفقراء! يعتبروه خطأ كوني وإخلال، أو إجحاف في حقهم والا سرقة غادرة!**

لأنه لابد نبقى مثلما حنا، ولابد وجود من يأكل

فضلات موائدهم

ظل ينظر طويلا في الشاشة في صمت والمؤكد يستعرض صور القنفذة والرفس والإقلاع والهبوط بلا سلام وبصقه بالعبارات الجارحة والمهينة وان كان هذا الرجل صاحب اليد في سعادته إلا أنها الآن ومهما كان كاللقمة اللذيذة التي لابد وأن تسبب له في النهاية الغصة وسوء الهضم، وخرجت كلماته مع هذه الغصة المؤلمة:

- لكن هـذا الخسيس مدهشني وبجد!

بغباوته وحماقته الفظيعة! كان يرميني ويكيل ليّ عبارات التحقير ولا حتى يتردد عن الترديد بأنه

يخاف مني وأمثالي من الفقراء لكن ..

على مين كان يخاف؟ على أمثاله من كبار الشرفاء؟

وأنفرط في ضحك متواصل حتى أدمعت عيناه تابع بحنق:

- أي خسة؟ أي غباء؟ كيف ما ميز ولا شعر وحس؟

ولا حتى أستحي وهو يدعي بأنه هو وهم شرفاء

وكبار؟

وراح يصفق بيديه في حرد وامتعاض ثم في تهكم:

- يا أحمق! شرفاء؟ وكبار؟

سكت فجأة وصفع جبينه بباطن كفه ليخرج عقله ونفسه من هذه المسائل والمعاناة قائلا إنه قد وصل الآن وكما أراد وحلم به ولا يهم كيف وبأي طريقة، وكلهم الآن أخوة وأصحاب فضل على بعضم!

فمنذ الليلة ومنذ الساعة عليه ألا أفكر إلا بالبحث عن السعادة والمسرات والتمتع بثرواته وفي كل مكان في العالم ليس إلا!

- رايح أبني القصور والشقق الفاخرة في دبي والطائف وجده وشرم الشيخ وإسطنبول وهولندا ..

وبأشتري يخت ضخم وسريع و ..

توقفت أفكاره فجأة وهو يقرأ خبرا عاجلا هاما على الشاشة في أحد قنوات بلاده الفضائية بينما يعبث بجهاز التحكم وقرأ في موجز الخبر ما أعتاد أهل البلاد سماعة بين ليلة وأخرى ولكنه لمح في آخر الخبر ما جعله يقوم برفع مستوى الصوت ليسمع تفاصيل جديدة ومتلاحقة بعد أن وصل اليه السياق التالي بصوت المذيع:

وبأنه تم السيطرة على ثلاثة صواريخ من نوع سكود حيث أسقط اثنان في منطقة صحراوية بعيدة وخالية قبل وصولها للمواقع المستهدفة أما الهدف الثالث فقد تم التعامل معه وتفجيره قبل سقوطه في المدينة الصناعية الشرقية بمسافة بعيدة.

وانتقل الخبر الى مشاهد أخرى لتنقل الكاميرات بثا مباشرا غير بعيد عن موقع تفجير أحد الصواريخ وليسمع تعليق المذيع المفزوع:

بأنه ورد بعد هذا الحدث بأقل من نصف ساعة أن أعلنت حالة الطواري للكوارث بتعرض عدد كبير من العاملين في عدد من الشركات أثناء الغارة وتواجدهم في الملاجئ ومواقع متفرقة من أبنية الشركات إلى سقوط الكثير منهم في حالات بين الإغماء أو الوفاة ومازالت حتى الساعة الحملات الإسعافية والخدمات الطبية والعلاجية تتدفق من كافة الجهات في المدينة إلى مواقع الأحداث للمساعدة ونقل المصابين لأقرب المستشفيات والمراكز الطبية، ومن جهة أخرى ما زالت التحقيقات تبحث في أسباب الحدث أو المسببات والملابسات و

ثم أخفض الصوت وراح يشاهد صورا متسارعة وفوضوية عن وقوع كوارث متفرقة في عدة مواقع ورأى أعدادا من الأجساد المتناثرة في ساحات وأروقة وغرف عدد من المباني وما روعه وكاد يوقف قلبه وشرايين دمه أنه سبق أن رأى أو عرف هذه المواقع والمباني ويعرفها جيدا، وما وفر عليه المعضلة رؤيته للوحات

وعلامات باسم هذه الشركات وأشد ما لفت انتباهه أن الضحايا جميعهم ارتدوا هذه الأقنعة الواقية أو نزعت عنهم وملقاة إلى جوارهم.

صرخ فجأة وساد الصمت إلا من صوت التلفزيون الهامس، لأن السيد جازع دخل مرغما في غيبوبة لفترة غير معلومة حتى عاد لوعيه، وتنبه وتمنى أن كانت نهاية حياته في تلك الغيبوبة.

أعاد الشاشة لمشهد المجلس فرأى إخوته الماسون في هرج ومرج وسعادة على موائد التسلية وعاد بالشاشة لمواقع الكارثة مرة أخرى ورأى فيها لقاءات مع مسؤولي بعض هذه الشركات وعرف منهم بعض اخوته الماسون ولم يكن في حاجة ليرفع الصوت ليعرف ما يقال، بل راح يمعن النظر في صور الضحايا والجثث المنقولة والمباني التي كان طاف بها بحقيبته الدبلوماسية الفاخرة التي اشتراها بثمن كلفه راتب شهر كامل، وحمل بها الملايين ثمنا للأقنعة التي يفترض بها واقية لأصحاب الجثث من سموم الأعداء لتكون هي التي أدخلت السموم إلى أبدانهم!

تصلب شعر رأسه وربما أبيض، ولكنه رجل في الظروف الغامضة يتحول إلى شخصية لا يمكن أن تتوقع تصرفاتها أو وجهات انطلاقاتها، وهو واقع الآن في حالة شلل فكري ونفسي عطل جميع تفاعلات جسده عن أي فعل وتصرف لذا وضع ذراعيه على ركبتيه وأنكب برأسه على ذراعيه وغاب طويلا فلا يعرف إن كان مغما عليه أو يبكي في صمت أو في حياة أخرى!

عند هذه النقطة وبهذا الشأن خرج صوت أعماق السيد أبو الخير وأبو رزق عن التستر والتدثر بجلباب أبو طارق ولأول مرة! ليس دفاعا عن نفسه لتبرئتها مما ارتكبت يداه من جرائم، ولا للتخلص مما تلوثت به من أدران، فلا تخفى التهمة ولن ينجو أي متهم مما أدين به ولن تدفع الملايين ولا مليارات لطمس أثر وتشترى الذمم ولن تلقى أبدا على خادم أو بريء، هي حالة من حالات الكفاح اليائس عند الانهيار الكامل ليبحث المسيء وفاعل الجرم عن نفسه كاشفا عن نفسه للتواري بشخصه للوقوف بكليته خلف مشاهد الجريمة ولتتوضح كل الصور بلا مبررات وبلا أعذار وفي اعتراف وقح دون أن يخفي وراءه أحقية الفعلة، فهو يرى جميع الإخوة أمامه وبوضوح على شاشته وفي مجلسه في بهجتهم ومجونهم ورقصهم على جثث الأبرياء وان تركهم وإعطاء أي منهم الفرصة للنجاة لا يعني أبدا لأبو رزق سوى التوغل في ظلم الإنسان لنفسه ولغيره من بني الإنسان.

لذا انهمرت كلماته بكل الوضوح وقد ترك ليتحدث في حرية ليصل الي الشمول ودون أن يلقى عليه الرجل الغامض أي سؤال مكتفيا بالجلوس أمامه بهدوء وسكون في الجزء المعتم المقابل له في صالة واسعة وخافتة الأضواء ويسودها صمت تام ولا يرى منه سوى بريق عينيه الثاقب كالصقر يتفرس كل صغيرة في دقائق ملامح أبو الخير الذي يجلس في بقعة محددة من الضوء ويشاهد وهو يكثر من الالتفات ويتحرك لا إراديا بين وقت وآخر يمنة ويسرة

أو يفرك ويشد شعر رأسه العاري في حيرة أو مفكرا في الخيوط التي سيمسك بها لتنفرط جميع عقد البساط القذر الممتد وسار عليه الي مدخل الطريق الذي وضع فيه أول قدم بأول خطوة ليسلك فيه طريق مرعبة زرعت بالشر في حدائق إخوته الماسون، ولقد وجدها حين سمع أخيرا صوت الشيخ أو الوجيه أو رجل المال جازع أبو الخير برد على ثورة في أعماقه كان يكتمها صامتة وتركها الآن تتفجر على لسانه ومن بين شفتيه:

- أنا واحد من ذولا الكبار، وصحيح يقولون عننا

كبار والحقيقة كبار بحق، وإخوة مخلصين لبعضنا بحق، ولكن كبار وأخوة فقط في الخسة واللصوصية!

لم يكن أبو الخير يرفع رأسه والظن بأنه لم يفكر في النظر باتجاه الرجل الصامت في الجهة المقابلة من المائدة السوداء الممتدة وسط القاعة ويظهر عليها بعض انعكاسات أضواء خافتة تتوزع في أرجاء مترامية وتلوح عن بعد صور شبحية لأشخاص تقف بلا حراك في بعض زواياها المعتمة وحول المدخل كما جلس ثلاثة رجال في مواقع معينة على أجهزة ربما حواسب ولا يمكن أيضا تمييز شخصهم، فالمكان معتم وفي صمت مطبق وليس هناك من يسأل أو يدون اعترافات ولكن بلا شك يوجد ما يصور ويسجل كل دقيقة من مكان خفي، وجاء صوت أبو الخير مرة أخرى:

- قلت كنا كبار في القذارة وسرقة مال الناس وقوتهم

بطرقنا باسم التجارة .. وقمنا فيها بتدمير صحتهم ..
وتهديد أمنهم .. وساهمنا في تفكيك الأسر وإهلاك
أعداد لا تحصى من شبابها وإفساد مستقبلهم وكل
استحقاقاتهم في الحياة الفاضلة

وتوقف ليعيد التفكير بالتخلص من ثقل وآلام الاعتراف وهو ليس أهون من بقائها في الصدر، ولكن عليه اختيار تنظيم خروج ركام الكتل كي لا يختنق بها، وأكمل:

- يمكن تسأل كيف سوينا الجرايم وقتلنا وحنا قاعدين
في قصورنا؟ بس اعذرني لازم أرجع من البدايات!

ربما أحس بهزة الرأس الخفيفة بالإيجاب من الرجل الجالس دون أن ينظر وهي لا تكاد ترى وربما شعر بها ليستمر في الحديث:

- أنا كنت دلال وفقير لكنهم .. أقصد أخواني، كانوا
هم أصحاب الذمة ومن في يدهم المال والقرار!
ولأجل ذمتهم الواسعة ما طردوني! وقفت على
الباب وما بصقوا في وجهي، ولا داسوني بالرجول
وهم يقولون لي انقلع!

ابتسم بألم:

- بالعكس رحبوا بي! ولأني صحيح فقير عانيت
وأعاني من سنين قرصات الجوع والعراء، فلو
طمعت بفرصة ولو حلمت ملايين المرات بالمليون
من حقي اطمع وأحلم! فما أحد يلومني!

وامتلأت أحداقه بنظرات تتقد الشر وهتف بصوت أعلى:

- لكن هم؟ ذولا الكبار! ايش اللي كان ينقصهم؟
ما عرفوا معنى الجوع الحقيقي ومن الولادة، أبدا!
ولا باتوا لياليهم في خرابة يسمونها بيت! وكانت
تتمشى فوقهم الخنافس والصراصير وتمص دمهم
وبقرف .. القمل والبق والناموس ..
وهذا اللي خلاني طماع وجشع وانتهازي ولكن هم؟

بدأت خيوط من الدمع الساخن تنساب على وجنتيه، وأبتلع ريقه بصعوبة:

- وفين أنا منهم؟ أنا بينهم مجرد سمسار، حقير، تافه،
احترفت خداع الناس عشان أوفر أو أنهب عشرة
ريال لكنهم وظفوني بملايينهم المسروقة. وخدمت
نفسي بوظيفتهم ومالهم!

وأخرج بعض ألمه في صوته المرتفع:

- هم صنعوني مثلهم!

فتحوا لي أوسع أبواب الجريمة وسهلوا لي المشي الآمن في هذا الطريق في البر والبحر والجو وكلها طريق لمنافعهم!

ظهر عليه الإعياء والعطش ليؤشر الرجل الجالس بأصبعه ليركض اليه شبحا من الظلمة وهمس في أذنه وفي لحظة زمن أحاط أبو الخير ثلاث رجال بأزياء تقليدية زاهية وملأ له أحدهم كأس باردة من الماء ويقدم آخر فنجالا من القهوة وليناوله أحدهم كأس من الشاي وظلوا وقوفا حتى لوح أبو الخير بالاكتفاء وذهبوا، ليتنهد بعدها أبو الخير بقوة نافثا ضغطا شديد الثقل عن أعماقه وهمس دون أن يرفع نظره نحو الرجل الجالس أمامه:

- أشكرك! وجزاك الله ألف خير في شخص لا يستحق أي ذرة من الخير والرحمة!

وسمع صوت الرجل لأول مرة ويبدوا أنه كان مبتسما:

- تقهوى يا أبو الخير وخذ راحتك بالكامل ومتى ما حسيت أنك تبي تقول شيء تكلم في أي وقت وانت

ضيفنا وتو الليل طويل

بالطبع لهذا ما لا يمكن تحديده ولا معرفة مدى طول هذا الليل ولا قدوم النهار في هذه الصالة المعتمة وبالأضواء المبرمجة، وقاوم أبو الخير أي رغبة باستمرار الصمت لينهي وينتهي الأمر:

- **هنا أرجع وأقول أنا وهم أصبحنا أخوة أشد حرص على مصالحنا وتضخيم ثرواتنا، وهم عرفوا أهم عيوبي لكن أهم مميزاتي كانت الأهم وكانت في قوة حظوظي في أي مشروع، فلابد أن يكسب أضعافه كصاحب "حظ يفلق الصخر"، وظفوني واجهة لمشاريعهم السرية ودعموني بكل معلومة وخدمة وكانت ثروتنا أقل من العشرين مليون ولقينا الفرص السريعة دون نظر لمشروعية وأنظمة، بعنا واشترينا في الذمم وكسبنا أضعاف مضاعفة استولينا على أراضي ودشنا مخططات واستوردنا جميع أنواع البضائع الرخيصة والأجهزة والأطعمة الفاسدة وأهم المدخولات كانت في التهريب للخمور والمخدرات اللي ساهمت في تجميعها وإعادة تصنيعها واستخدمت صغار الفقراء الباحثين عن**

الثروة لترويجها وكانت حظوظ السيد جازع

أبو الخير فعلا تفلق الصخر ..

صحيح! كانت تفلق الصخر لأنه بعد أكثر من عشرة

شهور وصلت بالثروة الي مئات الملايين ...

- وصلنا لمئات الملايين وبسرعة لأنا كنا بعنا ضمائرنا من أول مرة، وقتلنا الشرف ولوثنا

قداسة الثقة و معاني الإنسانية والوطنية ..

هتكنا طهر العقيدة والإيمان وعفاف الأمانة بكل

وسيلة للخيانة من يوم ركضنا لبيع الموت للناس

البريئة من أجل المال والثروة!

ويرفع أصبعه ويشير إليهم وكأنهم أمامه:

- كلهم يعرفون أنها كانت بضاعة فاسدة! وأنها

موجهة وخصصت لتتحول وقت الحاجة الي سلاح

قتل غادر للأبرياء! وقد أهلكت الأرواح اللي يدعون أنهم هم مؤتمنون عليها

وتنبه بأن صوته يخرج عاليا ودون أرادته لأن الصدى شديد القوة وظن بأنه في قاعة محكمة، وكانت توقعاته بالفعل صادقة.

كانت محاكمة كبرى لمحاسبة الضمير الغائب، القاتل للزهور والمدمر لمنابع الحياة، وكان الموت أقل العقوبات المستحقة ولكن لإحقاق الحق والعدل في حقوق ستظل مسلوبة، وخرج صوته مدويا في القاعة:

- **هم المجرمين وأنا من القتلة!**

هم شنقوا العدالة خفية وجهارا وأنا أزهقت معهم

روح الحق لتسمن أبدانهم وأملأ خزاناتي بالثروة في

منح الموت كتجارة مربحة!

وأكمل:

- **هم أشر مني بالطمع والانتهازية، ومن الجشع**

فرطوا وخانوا الأمانة، وسرقوا

كلنا تاجرنا بقتل الأرواح البريئة، مع بيع الأمانة

بالخيانة! وسلبنا الأرواح!

وفي انهيار:

- **ما هو أنا بس!**

أنا سمسار حقيقي!

أنا بعت واشتريت بالموت لكن

هم اللي من يدفع لي والمال وصل ..

وزاغت عيناه وهو يصرخ في رعب:

- ما هو أنا بس ..أنا وهم القتلة! هم قتلة!

هم القتلة وأنا سمسار حقيقي للموت!

ودوى صدى انفجار هذه الكلمات في فراغ مخه وأعماقه وفي صمت القاعة في صرخات متتابعة انطلقت مع ما سبقها:

- هم القتلة! هم القتلة! وأنا دلال! سمسار!

مثل أي سمسار في الحروب ..

وهذي حرب يا رجال!

وأحس بقوة أيدي تمسك به وتسحبه بقيود كثيرة في عنقه وبجميع أطرافه وتجذبه بعنف ليقول لمن حوله ويتمكن من رؤيته ويكرر لهم كالمعتذر:

- إنها الحرب يا رجل! انتظر!
- إنها الحرب يا .. رجل!
- أنها الحرب يا رجل!
-

*****

نبذة عن المؤلف

محمد ساهي آل عبدالله

السعودية _ مكة

_مدرس ومترجم بعدة وزارات سعودية

أعمال تحت الطبع:

_ أغاني عاشق ليالي القمر

_نزيف ليالي القمر

_ عزيف ليالي القمر

اعمال سابقة:

- **نهاية المتآمر الفرخعون – دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني**
- **اسطورة السور الطائف– دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني**
- **بيت الطين – دار قصص وحكايات للنشر الإلكتروني**

الفهرس

ابتسامة الطفل الغامضة؟..... ٤

يوم في دحلة الجن..... ١١٢

دموع في ليالي القمر..... ١٣١

إنها الحرب يارجل..... ١٤٥

نبذة عن المؤلف..... ٢١٩

الفهرس..... ٢٢٠